القرآن الكريم
من منظور غربي





القرآن الكريم من منظور غربي

د . عماد الدين خليل



الطبعة الاولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية
(٥٩٦ / ٥ / ١٩٩٦)

رقم التصنيف : ٢٢٦ر٣
المؤلف ومن هو في حكمه : عماد الدين خليل

عنوان المصنف : القرآن الكريم من منظور غربي
الموضوع الرئيسي : ١ - الديانات
٢ - القرآن الكريم - بلاغة
رقم الايداع : (٥٩٦ / ٥ / ١٩٩٦)
بيانات النشر : عمان / دار الفرقان

* - تم إعداد الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار الفرقان
للنشر والتوزيع

الادارة والمكتبية : العبدلي-جوهرة القدس/هاتف ٦٤٥٩٣٧-٦٤٠٩٣٧-٦٢٨٣٦٢
صندوق بريد ٩٢١٥٢٦ عمان - الاردن



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم



يعرف معظمنا ما الذي قاله المسلميون أنفسهم ، قدماء ومحدثون ، في كتاب الله : التفاسير والدراسات والابحاث والتقويمات والاقوال والكلمات ، لكننا في هذا الصفحات نحاول أن نضع ايدينا على بعض ما قاله غير المسلمون ، (وبعضهم انتمى في نهاية الأمر الى الاسلام) (*) ، في هذا الكتاب المعجز ، من اجل ان نتابع ، دون محاولات منا للتدخل الا في حالات محدّدة ، ما تتضمنه هذه الاقوال من مغزى سواء على مستوى سلامة النصّ القرآني ، مقارناً بالنصوص الدينية الأخرى ، أو على مستوى اسلوب القرآن ، ومضامينه وتأثيراته العقيدية والنفسية والحضارية .

ونحن - كذلك - نعرف ما الذي يفعله هذا الكتاب في الذين يقرأونه بلغته العربية المبينة ... كيف يبدّل الافكار ، ويغيرّ النفوس ، ويكهرب الاوصال ، ويلقي هزّته في الوجدان ، ويقول للانسان انني لست كتاباً كالكتب ولا عملاً كالاعمال ...

سنلتقي ببعض من قرأه بلغته هذه من غير المسلمين ، لكننا سنتابع -كذلك- اولئك الذين قرأوه مترجماً الى هذه اللغة او تلك ، أو مترجمة معانيه بعبارة ادقّ . ومع ذلك ، مع غياب جماليات اللغة الى حدّ كبير ، فانه هزّهم ، وادهشهم ، ونال اعجابهم ، وقالوا فيه ما قالوا ... فكيف لو اتيح لهم ان يقرأوه كما انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

مهما يكن من أمر فاننا ، مع اولئك وهؤلاء ، سنقوم برحلة مشتركة لكي نستمع اليهم وهم يتحدثون عن هذا الجانب أو ذاك من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

بعض القرّاء يرى ان اعتماد عدد من الشهادات الايجابية لهذا المفكر الغربي او ذاك ، عن جانب ما من جوانب الاسلام ، يعني في نهاية الأمر تزكية له ، وربما تبرئه لأعماله التي تتضمّن في الأعم الأغلب ، سيولاً من الشهادات

(*) يتناول الكتاب - أيضاً - معطيات عدد من غير المسلمين ، من الشرقيين أنفسهم ، لكنّ المساحة الأوسع انما هي للفكر الغربي الأمر الذي يفسّر عنوان الكتاب .

بنيتها بعمق ، ورسم الصورة الموضوعية العادلة لها . ذلك أن هناك اكثر من خلل في (منهج العمل) . ولن يتمخض هذا الخلل الاّ عن حشود من نقاط سوء الفهم والاخطاء على مستوى الموضوع ... الاخطاء التي تنتشر كالبثور على جسد السيرة المترع صحة وتماسكاً وعافية . فتشوّهه وتنثر على صفحاته البقع والشروخ .

نعم ، ثمة فرق بين مستشرق وآخر . ونحن اذا قارنا (وات) بـ (لامانس) مثلاً ، أو حتى بـ (فلها وزن) وجدنا هوة واسعة تفصل بين الرجلين ... يقترب أولهما ويقترب حتى ليبدو أشد اخلاصاً لمقولات السيرة من بعض ابناء المسلمين انفسهم ، ويبعد ثانيهما حتى ليبدو شتّاماً لعّاناً وليس باحثاً جاداً يستحق الاحترام . ومع ذلك فهو فرق في الدرجة وليس في النوع فيها . نحن نقف بعض الوقت عند كتاب (محمد في مكة) لأكثر المستشرقين حيادية ، كما اكد هو نفسه في مقدمته ، وكما قيل عنه ... فاذا بنا نقع على بعض جوانب الخلل في منهج العمل في حقل السيرة : نزعة نقدية مبالغ فيها تصل حدّ النفي الكيفي واثارة الشك حتى في بعض المسلمّات ، تقابل نزعة افتراضية تثبت بصيغ الجزم ولتأكيد ما هو مشكوك بوقوعه أساساً، واسقاط للتأثيرات البيئية المعاصرة ، وإعمال للمنطق الوضعي في واقعة تكاد تستعصي على مقولات البيئة وتعليلات العقل الخالص .

« ونستطيع أن نخلص من هذا كله الى أنه ليس بمقدور مستشرق على الاطلاق ، مهما كان من اتّساع ثقافته ، واعتدال دوافعه ، وحياديّته ونزوعه الموضوعي ، الاّ أن يطرح تحليلاً للسيرة لا بدّ أن يرتطم ، هنا أو هناك ، بوقائعها وداهاتها ومسلمّاتها ، ويخالف بعضاً من حقائقها الأساسية ، ويمارس - متعمدا أو غير متعمد - تزييفاً لروحها وتمزيقاً لنسيجها العالم » .

إن هذا « المنهج » لا يقف عند حدود السيرة وحدها بل يمضي ، بالمفردات نفسها ، بالرؤية الخاطئة ذاتها ، الى جلّ ماله علاقة بالاسلام وتاريخه ورجاله وحضارته .

وأظن ان هذا يكفي للاقتناع بأن تحايل العقل الغربي محسوب حسابه ،

السلبية تقف نقيضة تماما ، ليس للمعطيات الاسلامية فحسب ، بل لبداهاتها وقناعاتها المعروفة كذلك . وهؤلاء القراء من اجل تأكيد موقفهم يستعرضون عدداً من النصوص والشواهد المضادة التي تدين فكر (الأخر) وتضعه في الصف التبشيري المتحايل وتدمغه بالمكر الاستشراقي المعروف ، وحتى بجهل اصول العربية وأدابها وهو يتعامل مع كتاب الله .

وهذا صحيح ، بل ان بمقدور المرء أن يشير الى جلّ أعمال الغربيين كشواهد سيئة على موقف الطرف الأخر من الاسلام . ولن يحتاج هذا الى كبير عناء . بل أنني ، وأنا اتعامل معها خلال دراسات عديدة تتعلق بالفكر الاستشراقي ، والغربي عموما ، كنت اصل حدّ القرف والاشمئزاز لدى متابعة معطيات هذا الفكر والاستشهاد بمقولاته ، عند التحدّث الى طلبة الدراسات العليا الذين اتولى تدريسهم مادة (مناهج المستشرقين) .

لكن هذا كلّه ليس الوجه الوحيد للمسألة ، فهناك وجه آخر يرتبط بمنهج التعامل ارتباطاً أكيداً . إذ ألا يمكن أن ننتزع من حلوق الغربيين شهاداتهم الايجابية المتناثرة هنا وهناك ، والتي تمثل في نهاية الأمر اعترافاً حراً لا يتضمّن أي قدر من القسر او الاكراه ، بالقيمة المتألقة الفذّة لهذا الجانب أو ذاك من الاسلام ؟

فاذا ما أخذنا حَذرنا - مسبقاً - من التحايل التبشيري والمكر الاستشراقي والأسس العلمانية للفكر الغربي بوجه عام ، فانه ستسقط - ابتداء - لعبة التحايل بالنصوص الايجابية لايقاع الخصم (المسلم) في شبه الشواهد السلبية التي تدين أو تشوّه كل ما هو اسلامي اصيل .

والذي يبقى بعد هذا هو قوة الاعتراف بجانب من الحقيقة التي تصدر أحياناً عن متّهمين ثبتت جريمتهم أو كادت ، ولكن القضاء يعرف كيف يوظّفها لتأكيد الحق . ان المرء ليتذكر أيضاً مقولة عمر بن الخطاب المعروفة (رضي الله عنه) : « انما اثمهم عليهم ونفعهم لنا » ... لكنها - بحدّ ذاتها - كلمة حق ، ونحن لو أحسنّا انتزاعها والتعامل معها لقدرنا على توظيفها في تيّار الجدل المحتدم بيننا وبين الخصوم ، ولحولنا سلاحهم لصالحنا ، ولربما - من يدري -

باءوا بالاثم وعدنا بالمنفعة !!

عشرات السنين ونحن نكيل التهم ونصبّ اللعنات على المستشرقين ومفكري الغرب عموما ، وهذا حق بشكل من الاشكال ، إنه ردّ الفعل المناسب لركام من الأباطيل والأضاليل والترهات المرسومة بخبث وعناية . ولكن ماذا لو أضفنا الى هذا جهداً آخر يسعى لمتابعة المعطيات الايجابية والتقاطها - بغض النظر عن اهدافها وعن طبيعة اهدافها وعن طبيعة ارتباطها بشبكة الفكر الغربي - لأنها تحمل قيمتها باعتبارها اعترافاً بقيمه هذا الجانب أو ذاك من جوانب الاسلام ؟

لم يكن حذر بعض الاخوة القرّاء ، وحتى دهشتهم ، غائبين عن ذهني ، وأنا اكتب سلسلة من المقالات بهذا الاتجاه ، هي حصيلة تعامل ما يقرب من الثلاثين عاماً مع الفكر الغربي والاستشراقي دراسة وتدريسا وتأليفا ، وهذا -كذلك - وليدة قناعة منهجية بأن هذا الاسلوب ضروري كضرورة الرفض والهجوم ، لأن « الحكمة » - كما علمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم - ضالتنا ، أنى وجدناها فنحن احق بها ، ومن اي وعاء خرجت (ولنلاحظ عبارة « من اي وعاء » فلعلّها تخفف بعض الشيء من دهشة القرّاء) .

في مقدمة كتاب لي عن الفكر الغربي تقوم بنيته على الرؤية المنهجية نفسها ، وسيصدر باذن الله في وقت لاحق ، ترد العبارات التاليه : « ان ما مدّمه الغربيون عامة والمستشرقون على وجه الخصوص ، يتضمّن الأبيض والاسود ، إنْ على مستوى المنهج أو الموضوع ، وليس كله سواء . ان الرجل منهم قد يتضمّن كلامه ، في الوقت نفسه ، الأبيض والاسود معاً ، لأسباب عديدة منها قوّة الجذب في حقائق هذا الدين ، ومنها الجهل ببعض المسائل ، ومنّها التأثيرات الذاتية والثقافية ... الى آخره . (ان العقل الغربي الحديث - كما يقول سير هاملتون كّب - يعسر عليه بوجه خاص ان يقوم لمحاولة استكناه طبيعة المواقف الدينية لدى اناس تختلف نظرتهم الى الكون اختلافاً بعيداً عن

(*) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٣٥ - ٢٣٦ (ترجمة د . احسان عباس ورفاقه ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٤ م) .

نظرة « الغربي » ... ولذا اصبحت احكامنا الدينية - نحن الغربيين - شديدة الاختلال (*) وهنا يجب أن نقف قليلاً عند مسألة (حدود النصّ) وضرورة عدم ممارسة الاقتطاع القسري ازاءه ... كيف يتم ذلك ؟ إن علينا أن نلاحظ كيف أن عدداً من الشهادات الايجابية لحق الاسلام ، أو جانب من جوانبه ، من قبل هذا المفكر أو ذاك ، يقابله في الوقت نفسه ركام من شهادات اخرى سلبية تقف موقفاً مضاداً من الاسلام ، لكن هذا لا يمنع من اعتبار الشهادات الاولى بمثابة اعتراف (حرّ) بهذه القيمة أو تلك من قيم الاسلام ، والتي تدفع الغربيين الى اعلان رأيهم ذاك ، دونما أي نوع من انواع القسر أو الاضطرار . فكشهادات ، وليس كموقف نهائي ، يمكن أن تعتمد للدلالة على ما نمن بصدده . فأما (الشهادة السلبية) فقد فرضت نفسها على نطاق واسع لأنها الاكثر حضوراً وانتشاراً في الفكر الغربي . ويستطيع المرء أن يجدها بسهولة في معظم الاعمال الغربية التي تمّس الاسلام . وأما (الشهادة الايجابية) فهي التي تحتاج الى مزيد من التأكيد والتنسيق واعادة العرض في اطار ملائم ... تلك الشهادات التي اذا ما عرضت على المفكر الغربي اكّد صدقها ثانية وثالثة ورابعة ، لأنه لم يقلها الاّ بدافع قدرة الاسلام ، في جانب ما من جوانبه ، على تأكيد تميزّه وتفوّقه وما عليه » .

وفي خاتمة بحثي الذي نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج عام ١٩٨٥ ضمن مجلد (مناهج المستشرقين) بعنوان : (المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر : مونتغمري وات) (*) ترد العبارات التالية بصدد المقف من سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « ان المحصّلة النهائية التي يمكن ان نصل اليها من خلال التعامل مع دراسات المستشرقين ، أيا كان موقعهم ، انه لا يمكن لهذه الدراسات على الاطلاق ، (وبالتأكيد العقلي غير الانفعالي على هذه العبارة الأخيرة) أن ترقى الى مستوى السيرة فتكون قديرة على التعامل معها والتوغل في نسيجها ، وادراك

(*) صدر فيما بعد في كتاب مستقل عن دار الثقافة - الدوحة - ١٩٨٩ م .

(١)

التوثيق

لنبدأ بالتوثيق فهو حجر الزاوية والأساس الذي تبنى عليه سائر المعطيات الأخرى ...

انهم يُجمعون على أن النصّ القرآني ، هو على خلاف سائر النصوص الدينية الأخرى ، حافظ على حدوده كاملة ، لم يمسّه اي تغيير أو تحريف أو تزوير أو زيادة أو نقصان . لقد ظل ، عبر العصور ، كما انزل تماما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مكتوبا على الورق ، محفوظاً في القلوب والعقول ، مسطّراً على الوجدان الاسلامي كلمة كلمة وآية آية وسورة سورة ! « صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل ، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحّة لا العهد القيم ولا العهد الجديد ... لسبب بسيط وهو أن القرآن قد ثبت في عصر النبي صلى الله عليه وسلمّ ... و { أنه } لم يتعرض لأي تحريف من يوم أن انزل على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يومنا هذا »[1] .

ومنذ لحظات التنزيل الاولى « واولاً بأول - يقول بوكاي - كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب وكان الكتبة من صحبة يدوّنونه . اذن فالقرآن يتمتع ، منذ البداية ، بعنصريْ الصحّة هذين اللذين لا تتمتع بهما الأناجيل ، وظل الأمر هكذا حتى موت النبي صلى الله عليه وسلم . وفي عصر لا يستطيع فيه الكل أن يكتب ، وان كان يستطيع ان يحفظ عن ظهر قلب ، تصبح التلاوة ذات فائدة لا تقدّر ، وذلك « لأمكانيات التحقيق العديدة التي تعطيها ساعة التثبيت النهائي »[2] .

ولقد تمت عملية التثبيت النهائي هذه « اي عملية تثبيت صحة النصّ ، بمنتهى الدقة ، ورئي ضرورة مطابقة الشهادات وذلك لضبط اقل آية تسمع بأي جدل »[3] .

---

(١) موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم (دراسة الكتب في ضوء المعارف الحديثة) . ص ١٥١ (دار المعارف ، القاهرة - ١٩٧٨) .

(٢) نفسه ص ١٥٢ .

(٣) نفسه ص ١٥٥ .

أرجو الا اكون متفائلاً باكثر مما يجب ان قلت بأنه حتى القارئ العادي (المخلص بطبيعة الحال) يكاد يعرف ذلك ويمسّه . فليس ثمة خشية اذن من ان يأتي الحديث عن المعطيات الايجابية في الفكر الغربي ، بمردود معاكس ، ما دامت الاضواء الحمراء قد أشعلت مسبقاً على طريق هذا الفكر ، بفضل تقاليد وتأثيرات نصف قرن أو يزيد ، بحثاً عما هو أخضر جميل قد يحمل قيمته البالغة بسبب ندرته .

" أما اعداء الاسلام ، من الداخل والخارج ، فلن يضيرهم شيء إن ظللنا نكتب عن الوجه الاسود للمعطى الغربي ... أما الوجه الآخر الذي تطمس عليه ظلمة التعصّب وتغطيه ظلال الكراهية ، فان كشفه وتسليط الضوء عليه قد يردّهم الى شيء من الصواب وهم يرونه يصدر - بالحق والباطل - عن حشد من اصحابهم !

والى الله وحده نتوجّه بالكلمات والاعمال

الموصل : عماد الدين خليل

ويرى بلاشير « ان الفضل يعود الى الخليفة عثمان بن عفان { رضى الله عنه} لاسهامه قبل سنة ٦٥٥م في ابعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن ، واليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نصّ كتابهم المنزل على مدى الاجيال القادمة » (١) .

ويذكرّ لاندو بالمحاولة التي سبقت عثمان رضي الله عنه حين « كلف كاتب الوحي ، زيد بن ثابت { رضي الله عنه } جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب . وكان ابو بكر { رضي الله عنه } قد أشرف على هذه المهمة . وفي ما بعد ، إثر جهد مستأنف بذل بأمرٍ من الخليفة عثمان { رضي الله عنه } اتخذ القرآن شكله القانوني الذي وصل الينا سليماً لم يطرأ عليه اي تحريف » (٢) .

ويلحظ نصري سلهب كيف تلقّف اصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، آيات القرآن البيّنات باعتبارها « اثمن من جميع جواهر الأرض واغلى » ، وكيف انهم « سارعوا ، هلعين ، قلقين ، الى تدوينها وخطّها على كل ما يمكن أن تستقر عليه الأحرف والكلمات ... وهكذا قدر لتلك الآيات أن تستقر وتبقى لافي اذهان المؤمنين وذاكرتهم فحسب ، بل في اشياء تحفظ وتقوى على الزمن اكثر مما يقوى عليه البشر الفانون » (٣) ، وهو يعلن بوضوح بأنه « لم يقدّر لأي سفر ، قبل الطباعة ، اياً كان نوعه وأهميته ان يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام ، وأن يتوفر له ما توفّر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف ، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب » (٤) .

أما سوسة ، اليهودي الذي انتمى الى الاسلام ، فيقارن بين النصّ القرآني وبين مصاحف اليهود ، ويؤكد أن « التحوير والتبديل » الذي اصاب تلك المصاحف « أمرٌ اجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي بنتيجة الدرس والتنقيب، وقد جاء ذلك تأييدا علمياً للاقوال الربانية التي اوحيت قبل نيف

---

(١) تاريخ الادب العربي ، جزء ٢٢ (ترجمة ابراهيم الكيلاني ، وزارة الثقافة ، دمشق - ١٩٧٣ - ١٩٧٤) .

(٢) الاسلام والعرب ص ٢٩٦ (الطبعة الثانية ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٧٧).

(٣) في خطى محمد ص ٣٣٦ (دار الكتاب العربي ، بيروت - ١٩٧٠) .

(٤) نفسه ص ٣٣٧ .

وثلاثة عشر قرنا على لسان النبي العربي الكريم ، صلى الله عليه وسلم . اما الفرقان المجيد ... فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة ، فهو حقاً الكتاب المقدس الفريد الذي اجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير . وما على القارئ الا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب ... { اولئك } الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه ، وهم اجانب غرباء كثيراً ما يصوبون اسهمهم الناقدة السامّة نحو الاسلام . والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك اي شك في أن القرآن الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير ، وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه ، صلى الله عليه وسلم ، دون أن يتغيّر فيه حرف واحد »[١] .

وهو يعرّف القرآن الكريم بأنه ذلك « المصحف الذي أنزل على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، تلي على الاجداد قبل ثلاثة عشر قرنا ، لم يطرأ عليه شيء من التغيير والتحريف ، هذا هو أساس الاسلام : كان { مرجع } الشريعة الاسلامية ، وسيكون كذلك الى الأبد ، فهو مصحف الله وسنته ولن تجد لسنة اللهْ تبديلا »[٢] .

وهذا نصراني هندي ، انتمى هو الآخر الى الاسلام ، يشير الى ما يمكن اعتباره صمّام أمان للنصّ القرآني على مرّ العصور ... القدرة على حفظه عن ظهر قلب ، فيما يعدّ ميزة يتفردّ بها القرآن ، وهي ميزة مارست ، منذ اللحظات الاولى ، ولا تزال ، مهمة حماية النصّ القرآني من اي تغيير ، حتى ولو كان على مستوى حرف أو حركة ! فالقرآن الكريم ، يقول شاد ، « هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب الوف مؤلفة من البشر ، في مختلف بقاع الارض ، بينما نجد أن الكتب المقدسة الاخرى محفوظة بالخط المطبوع فقط . ومن هنا لوحدث لسبب او لآخر ان اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور . وهكذا يحق له أن يتباهى بأنه ظل

(١) لي طريقي الى الاسلام ، جزء ١ ص ٨٦ (الجزء الاول ، المطبعة السلفية ، القاهرة - ١٩٣٦ ، الجزء الثاني ، مطبعة العربي ، النجف - ١٩٣٨ م) .

(٢) نفسه ١ / ١١٦ .

في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد ، منذ أن نزل به الوحي على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . فليست هناك أية تناقضات ولا اخطاء من أي نوع في القرآن الكريم ، هذا في الوقت الذي تعاني فيه الكتب السماوية الأخرى في نسختها الحالية من الكثير من التغيير والتبديل . وهذا سبب آخر جعلني اؤمن بالاسلام »[١] .

أما الباحثه الايطالية لورا فاغليري فانها تحسم الأمر بتأكيدها على أن القرآن الكريم « نقلته الينا الرواية الراسخة غير المنقطعة »[٢] وعلى أن « نصّه ظل صافياً غير محرّف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا ، وأن هذا النصّ سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف باذن الله مادام الكون »[٣] .

فاذا انتهينا الى المستشرق الفرنسي المعروف درمنغهم فاننا سنجده يرجع بنا الى لحظات تنزّل الوحي ، والى الظاهرة نفسها لكي يؤكد للقارئ الصدق المطلق في تلقّي كلمات الله ، وتثبيتها ، ويبيّن - كذلك - انفصالها بالكلية عن شخص المتلقّي ، وحرصه (صلى الله عليه وسلم) على أمانة النقل المطلقة « لقد كان محمد { صلى الله عليه وسلم } يعدّ نفسه وسيلة لتبليغ الوحي ، وكان مبلغ حرصه أن يكون أميناً مصغياً أو سجّلاً صادقاً أو حاكياً معصوماً لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي ، لكلام الله الذي هو أم الكتاب ، الكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة ... »[٤] .

ويمضي درمنغهم يصف معاناة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يتلقى كلمات الله ويتعامل معها ... لقد كانت له « بالوحي آلام كبيرة ... وحالات

---

(١) عرفات كامل اعمّي : رجال ونساء اسلموا ، جزء ٧ ص ٢٠ (دار القلم ، الكويت - ١٩٧٣ - ١٩٨٣) .
(٢) دفاع عن الاسلام ص ٥٦ (الطبعة الثالثة ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٧٦).
(٣) نفسه ص ٥٨ - ٥٩ .
(٤) حياة محمد ص ٢٧٦ (الطبعة الثانية ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٩).

مؤثرة ، كره أن يطلع الناس عليها ، ولاحظ ابو بكر { رضي الله عنه } ذات يوم، والحزن ملء قلبه ، بدء الشيب في لحية النبي { صلى الله عليه وسلم } فقال له النبي : (شيبتني هود وأخواتها : الواقعة والحاقة والقارعة) وكان النبي { صلى الله عليه وسلم } يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه فيطبّه بالمراهم، وكان يدثر حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين . وكان اذا نزل الوحي عليه يتحدر جبينه عرقا في البرد » [1] .

وكان صلى الله عليه وسلم « وهو البعيد من انشاء القرآن وتأليفه ، ينتظر نزول الوحي اليه احياناً على غير جدوى ، فيألم من ذلك ، ويودّ لو يأتيه الملك متواترا » [2] .

إن هؤلاء الباحثين ، وغيرهم كثيرون ، انما يؤكدون ، وهم يتحدثون عن توثيق النصّ القرآني وسلامته ، واحدة من معجزات القرآن البيّنة التي اعلن هنها كتاب الله نفسه (إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) [3].

---

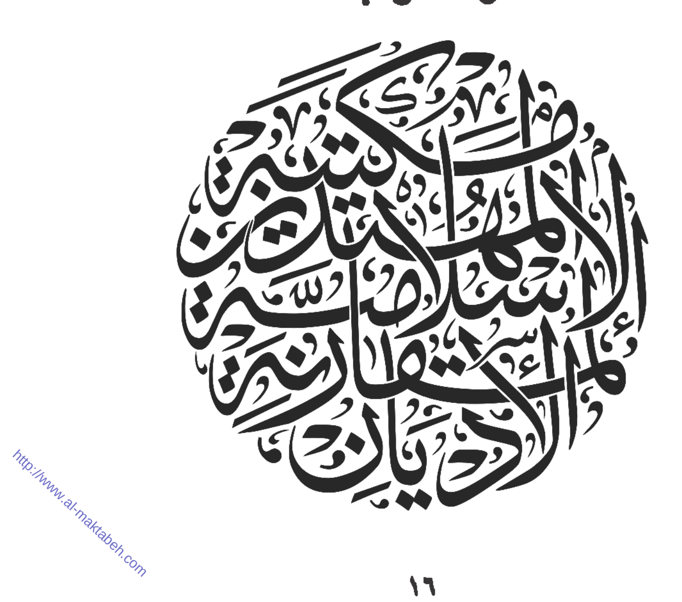
(١) حياة محمد ص ٢٨٣ (الطبعة الثانية ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة – ١٩٤٩)

(٢) نفسه ص ٢٨٥ .

(٣) سورة الحجر ، آية ٩ .

(٢)

الأسلوب



الاسلوب القرآني هو المضمار المتفرّد الآخر الذي يبهر أبصار اولئك الباحثين ويدهش عقولهم ، على الرغم من أن بعضهم كما ألمحنا لم يمسك تماما بتلابيب العربية ويتمكن منها ، ولعله لم يتعرف عليها ابتداء « إن الاسلوب القرآني - يقول فيليب حتى - مختلف عن غيره ، ثم انه لا يقبل المقارنة باسلوب آخر ، ولا يمكن أن يقلّد ، وهذا في اساسه هو اعجاز القرآن » [1] .

وما يقوله الباحث العربي المسيحي فيليب حتي ، الذي يعرف جيداً كيف يتذوّق الاداء القرآني ، يقوله كذلك باحث عربي نصراني آخر هو نصري سلهب الذي يقف عند هذه الظاهرة فيطيل الوقوف . لقد كان محمد { صلى الله عليه وسلم } ، يقول الرجل « أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فاذا بهذا الأميّ يهدي الانسانية ابلغ أثر مكتوب حلمت به الانسانية منذ كانت الانسانية . ذاك كان القرآن الكريم الكتاب الذي انزله الله على رسوله هدى للمتقين » [2] .

ويمضي سلهب لكي يشير الى القيم البلاغية في القرآن « فالواقع ان هذا القرآن لسحر حلال ... وانه لمن المستحيل على غير العربي ، أو على غير الملمّ باللغة العربية ، ان يدرك ما فيه من جمال » [3] وتلك اللغة « التي ارادها الله قمة اللغات ، كان القرآن قمتها ، فهو قمة القمم ، وذلك بأنه كلام الله » [4] .

وليس القرآن « بلاغة كلمة وجال لغة فحسب ،انما هو لحن ازلي ، بل انشودة خالدة فيها من الموسيقى ما يطرب ويدني من السماء ، فليس هو بحاجة الى ان يصاغ في لحن لينشد ويرتل ، فلحنه من صلبه ، في تقاطيع صوره وهدهدة كلماته » [5] فليست الكلمات والتراكيب فحسب واما هي الموسيقى التي تصنعها الكلمات والتراكيب الالهية والتي تنعكس جمالياتها

---

(١) الاسلام منهج حياة ص ٦٣ (تعريب عمر فروّخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٥) .

(٢) في خطى محمد ص ٩٤ .

(٣) نفسه ص ٣٤١ .

(٤) نفسه ص ٣٤٢ .

(٥) نفسه ص ٣٤٣ .

بالتالي على البيان المعماري للقرآن فاذا به كتاب ليس كالكتب « واذا كنا بالأمس واليوم نطرب لرائع الشعر العربي ... سواء في بيروت أو دمشق أو القاهرة أو بغداد أو تونس أو في أي صقع من اصقاع العروبة ، فانما الفضل في ذلك يعود للقرآن ،وللقرآن وحده » (١) ومرة اخرى ، فان « غير العربي ، أو غير مالك ناصية العربية ليعجز عن تقدير عظمة القرآن واستيعابها ... وليس ادلّ على صحة ما نقول من أن يطالع القارئ بعض الترجمات ، انه سيدرك ، دون جهد ، الفارق الكبير بين كلام الله وكلام مخلوقاته » (٢) .

أما سوسة ، فان تحوله عن اليهودية الى الاسلام ، كما يشير في مذكراته يرجع الى الايام التي شرع فيها بمطالعة القرآن الكريم للمرة الاولى « لقد ولعت به ولعاً شديدا ... وكنت اطرب لتلاوة أياته » (٣) وهو يؤكد ما سبق وأن اشار اليه سلهب من ضرورة الالمام بالعربية لكل من يريد أن يتعامل مع سحر القرآن « فالواقع انه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية ولم يضطلع بأدابها ان يدرك مكانة هذا الفرقان الالهي ، وسموّه ، وما يتضمنه من المعجزات المبهرة » ويتساءل « هل من مناص للمرء من الانجذاب الى معجزة القرآن بعد تمعّنه في أمية نبيّ الاسلام ووقوفه على اسرار حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ ... فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمية محمد ، صلى الله عليه وسلم برهاناً على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له » (٤) .

فاذا ما جئنا الى الباحث الفرنسي الكونت هنري دي كاستري فاننا نجده يقف عند هاتين المسألتين وهو يتحدث عن الاسلوب القرآني : التناقض المطلق بين أمية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وإعجاز الاداء القرآني من جهة اخرى «ان العقل بحار كيف يتأتئ ان تصدر تلك الأيات عن رجل أمي ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها أيات يعجز فكر بني الانسان عن الاتيان لفظاً ومعنى . آيات

---

(١) الاسلام منهج ص ٣٤٤ (تعريب عمر فروّخ ، دار الملايين ، بيروت ١٩٧٥) .

(٢) نفسه ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٣) في طريقي الى الاسلام ١ / ٥١ .

(٤) نفسه ١ / ١٨٢ - ١٨٣ .

لماسمعها عقبة بن ربيعة حار في جمالها ، وكفى رفيع عبارتها لاقناع عمر بن الخطاب {رضى الله عنه} فأمن بربّ قائلها ، وفاضت أعين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن ابي طالب سورة زكريا ، وما جاء في ولادة يحيى ، وصاح القس ان هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى {عليه السلام} ... لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا ان نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لافكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الامم عندنا ، غير انه لا ينبغي ان يكون ذلك سببا في معارضة تأثيره في عقول العرب . ولقد اصاب (جان جاك روسو) حيث يقول (من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمداً { صلى الله عليه وسلم } يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الاذان ويؤثر في القلوب ... لخرّ ساجدا على الارض وناداه : ايها النبي رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار او مواقع التهلكة والاخطار فنحن من اجلك نود الموت او الانتصار) .. وكيف يعقل ان النبي { صلى الله عليه وسلم } الف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع انها في الازمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها الأ القوم العالمون ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك ان يستولي على الافكار ويأخذ بمجامع القلوب » [1] .

أما صنوه اتبين دينيه الذي انتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام فانه يذكرنا بما فعله الاسلوب القرآني بالمشركين ... لقد « احّس هؤلاء في دخيلة نفوسهم انْ قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم «صلى الله عليه وسلم » وكلهم كثيرا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الالفاظ الأخّاذة التي الهمها ايمان سماوي ، ولم يمنعهم عن الاسلام الأ قوة حبّهم لأعراض الدنيا ... » [2].

---

(١) الاسلام : خواطر وسوانح ص ١٨ - ٢٠ (ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، مطبعة الشعب ، القاهرة - ١٩١١) .

(٢) محمد رسول الله ص ١٠٦ (الطبعة الثالثة ، بالاشتراك مع سليمان ابراهيم الجزائري ، ترجمة عبدالحليم محمد ومحمد عبدالحليم محمود الشركة العربية القاهرة - ١٩٥٩) .

وإذا كان بعض المشركين قد سحر بالاداء القرآني لكن « اعراض الدنيا » صدّته عن المضي في الطريق حتى نهايته ، فان اكثرية المنتمين الاوائل للاسلام من صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كانوا قد استجابوا للنداء بتأثير هذا الاداء المعجز فاذا « كان سحر اسلوب القرآن وجمال معانيه يحدث مثل هذا التأثير في (نفوس علماء) لا يمتّون الى العرب ولا الى المسلمون بصلة فماذا ترى أن يكون من قوة الحماسة التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الأيات بلغتهم الجميلة ؟ ... لقد كانوا لا يسمعون القرآن الأ وتمتلك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة ، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سحّروا فيه . أهذه الأيات الخارقة تأتي من محمد { صلى الله عليه وسلم } ذلك الأمي الذي لم ينل حظاً من المعرفة ؟ ... كلا إن هذا القرآن لمستحيل ان يصدر عن محمد، وانه لا مناص من الاعتراف بان الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الأيات البيّنات » [1] .

ثم يخلص دينيه الى القول بأن « الجاذبية السحرة التي يمتاز بها هذا الكتاب الفريد من امهات الكتب العالمية ، لا تحتاج منا نحن المسلمين الى تعليل ، ذلك اننا نؤمن بأنه كلام الله انزله على رسوله ... » [2] .

ويؤكد رجل القانون الفرنسي بوازار أن القرآن « ما زال حتى أيامنا هذه نموذجا رفيعا للأدب العربي تستحيل محاكاته » وأنه « لا يمثل النموذج المتزن للعمل الأدبي الامثل وحسب ، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي الاسلامي الذي ابدعه ... » [3] .

باحث فرنسي آخر هو جاك ويسلر يتحدث عن « روعة القرآن في اسلوبه » وانه انزل « ليقرأ ويتلى بصوت عال » كما يشير الى أن « أية ترجمة لا تستطيع أن تعبّر عن فروقة الدقيقة المشبعة بالحساسية ... ويجب أن تقرأه في

---

(١) محمد رسول الله ص ١١٩ - ١٢١ (الطبعة الثالثة ، بالاشتراك مع سليمان ابراهيم الجزائري ، ترجمة عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود ، الشركة العربية ، القاهرة - ١٩٥٩).

(٢) نفسه ص ١٨٨ .

(٣) إنسانية الاسلام ص ٥٢ - ٥٣ (ترجمة عفيف دمشقية ، دار الأداب ، بيروت - ١٩٨٠) .

لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته . ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس حيث تزخر الافكار قوة وتتوهج الصور نضارة . فلا يستطيع أحد أن ينكر ان سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في اشعارنا بأن محمداً { صلى الله عليه وسلم } كان ملهماً بجلال الله وعظمته » [١] .

ويعود ريسلر في مكان آخر لكي يؤكد على انه ليس بمقدور الترجمات ان تنقل ثورة القرآن اللغوية « اذ يذبل جمال اللغة في الترجمات فأنها زهرة قطفت من جذورها . ولذلك يجب ان يقرأ القرآن في نصّه الاصلي » [٢] .

وينبّه الباحث الامريكي جورج سارتون الى أن « لغة القرآن على اعتبار انها لغة الله ، كانت بهذا التحديد كاملة ... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الاعلى في التعبير عن المقاصد » [٣] .

وتصف الباحثة الايطالية لورا فاغليري القرآن الكريم بأنه « كتاب لا سبيل الى محاكاته » وأن « كلاً من تعبيراته شامل جامع ، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب ، ليس بالطويل اكثر مما ينبغي وليس بالقصير اكثر مما ينبغي » ثم تتحدث عن خصائصه الاسلوبية فترى أنها تتميز بالتفرد والأصالة وأنه « ليس ثمة ايمّا نمط لهذا الاسلوب في الأدب العربي تحدّر إلينا من العصور التي سبقته » وأن « الأثر الذي يحدثه في النفس البشرية انما يتمّ من غير ايمّا عون عرضي او اضافي بل من خلال سموّه السليقي . ان أياته كلها على مستوى واحد من البلاغة ، حتى عندما تعالج موضوعات لا بدّ ان تؤثرّ في نفسها وجرسها ، كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها . انه يكرر قصص الانبياء { عليهم السلام}، واوصاف بدء العالم ونهايته ، وصفات الله وتفسيرها ، ولكنه يكررها على نحو مثير الى درجة لا تضعف من أثرها . وهو ينتقل من موضوع الى

---

(١) الحضارة العربية ص ٣٠ - ٣١ (ترجمة غنيم عبدون ، مراجعة احمد فؤاد الأهواني ، الدار المصرية ، القاهرة - بدون تاريخ) .

(٢) نفسه ص ٤٥ .

(٣) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط ص ٣٧ - ٣٨ (تعريب عمر فروّخ ، مكتبة المعارف ، بيروت - ١٩٥٢) .

موضوع من غير أن يفقد قوته . اننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً - وهما صفتان لا تجتمعان عادة - حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقاً كاملاً فكيف يمكن ان يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد { صلى الله عليه وسلم } ، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة ابيات لا ينمّ اي منها عن ادنى موهبة شعرية ؟ » [1] .

وتذكرّنا فاغليري بالتحدّي الحاسم الذي اعلنه محمد (صلى الله عليه وسلم)، في مواجهة المشركين ، وبسقوط هؤلاء وعجزهم عن الاستجابة بسبب استحالتها المطلقة « فعلى الرغم من أن محمداً { صلى الله عليه وسلم } دعا خصوم الاسلام الى ان يأتوا بكتاب من مثل { القرآن } ، او على الاقل بسورة من مثل سوره ... وعلى الرغم من أن اصحاب البلاغة والبيان الساحر كانوا قلائل في بلاد العرب ، فان احداً لم يتمكن من أن يأتي بأي أثر يضاهي القرآن. لقد قاتلوا النبي { صلى الله عليه وسلم } بالأسلحة ، ولكنهم عجزوا عن مضاهاة السموّ القرآني . ذلك أن الكتاب الى جانب كماله من حيث الشكل والطريقة ، قد اثبت انه ممتنع على التقليد والمحاكاة حتى في مادته » [2] .

ويوغل المستشرق البريطاني السير هاملتون كُب في تفحصّ الظاهرة الاسلوبية للقرآن ، وتأثيرها العجيب في الوجدان البشري « فالذي يمنح القرآن قوة على تحريك قلوب الناس وتشكيل حياتهم ، ليس هو محتواه من مبادئ ونذر» كما يستنتج كَب بنظرة ذات بعد أحادي « وانما لموسيقاه اللفظي ، اذ يتكلم كأسفار النبوءات في التوارة بلغة الشعر ، وان لم يخضع لقيود الشعر من وزن وقافية . واذا كان المرء يعني بالشعر ما يكاد يشبه السحر في نظم الالفاظ ، حتى تحدث صدى ويتردد صداها في العقل ، وتفتح منظورات طويلة للبصيرة ، وتخلق في الروح سمواً يحلّق بها بمنأى عن عالم المادة ، وينورّ جنباتها بفيض فجائي من الشعاع ، فذلك بالضبط هو ما يعنيه القرآن لدى المسلم . والدليل على أن هذا ليس محض تصورّ ليس هو التجربة الشخصية فحسب ، بل ان مبدأ الاعجاز يعتمد على خصائصه الفنية والجمالية بقدر ما

(١) دفاع عن الاسلام ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) نفسه ص ٥٧ .

يعتمد على محتواه الغني الغزير [١] .

وهو يقارن بين القرآن وبين الكتب المقدسة الأخرى ، فلا يستغرب الا يجد المسلم في اي منها « شيئاً من هذه الصفة الشعرية الشعورية ، وهذه القوة على تأييد ملكة الرؤي الحدسية وتقويتها ، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقفا من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة . غير ان هذا ليس هو كل شيء هنالك اذ تقف شخصية محمد « صلى الله عليه وسلم » نفسه مرتبطة ارتباطاً لا انفصام له بالقرآن ، بروابط من المشاعر الحارة التي يسبغها الحب الانساني ، مكملة للقدرة العقلية في تعاليمه وللجوانب الشعرية في لغته » [٢] .

ولا ينسى كَب ان يشير الى معضلة ترجمة القرآن الى اللغات الأخرى ، والى انها لقيت المعارضة من بعض رجالات الاسلام الذين يجد كَب في موقفهم ما قد يبرّره « فعلى الرغم من أن النصّ العربي يظهر في بعض الأحيان مقترنا بترجمة تركية أو فارسية أو أوروبية وغيرها من اللغات ، فان هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها الى حدّ ما بشكل عقلاني ، مستندة في ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني العلمي . والواقع ان القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع ، اذ ليس بالامكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية ، ولا يمكن أن يعبرّ عن صوره وأمثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ . وفي القرآن كذلك صور تلعب فيها موسيقى النغم دوراً لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها افكار الشخص الذي يصغي الى القرآن لتلقّي تعاليمه . ولا شك أن تأويل كلمات القرآن الى لغة اخرى لا يمكن الا ان يشوهها وتحولّ الذهب النقي الى الفخار » [٣] .

وتذهب النبيلة الانكليزية اللادي ايفلين كويلد ، التي اعتنقت الاسلام ،

---

(١) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٥٦ (ترجمة إحسان عباس ورفاقه ، دار العلم للملايين ، بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين ، بيروت - ١٩٦٤) .

(٢) نفسه ص ٢٥٧ .

(٣) الاتجاهات الحديثة في الاسلام ص ٣٠ - ٣١ (تعريب جماعة من الاساتذة الجامعيين ، المكتب التجاري ، بيروت - ١٩٦١ .

مذهب كّب في ان الرجمة قد لا تؤدي غرضها البتة مع كتاب الله ! « فالواقع ان جمل القرآن ، وبديع اسلوبه ، امرٌ لا يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفا ، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته ، وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيرها من الكتب » [1] . وهي تشير بهذا الصدد الى رأي طرحه المستشرق الفرنسي الدكتور ماردريك الذي سبق وأن كفلته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن ، والذي كان يجد في القرآن من المزايا مالا يوجد في كتاب غيره حيث يقول « أما اسلوب القرآن فأنه اسلوب الخالق عز وجل وعلا ، ذلك أن الاسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الاسلوب لا يكون الا الهياً . والحق والواقع ان اكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره ، وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل اجانب المبشرين يعترفون بالاجماع بعدم امكان اثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها احد المسلمين عن دينه الى الأن ، ذلك ان هذا الاسلوب ... الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس .. كان لفعله الاثر العميق في نفس كل سامع يفقه اللغة العربية ، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء (نقل) تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع بمثله بلغة اخرى ... » [2] .

وبصدد تفرّد الاسلوب القرآني تجري كوبولد مقارنة تقتبسها عن المستشرق جوهونسون ترى أن وجهة نظره تعبرٌ تماما عن رأي مثقفي الغرب وكبار مفكريهم ، حيث يقول «اذا لم يكن (الأداء القرآني) شعرا ، وهو امرٌ مشكوك به، ومن الصعب ان يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فانه في الواقع اعظم من الشعر، وهو الى ذلك ليس تاريخاً ولا وصفاً، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير ، ولا خطباً فلسفية كمحاورات افلاطون ، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلب ، وان كان عالمياً في جملته ، بعيد المعنى في مختلف سوره وأياته ، حتى انه يردد في كل الاصقاع،

---

(١) البحث عن الله ص ١١١ (ترجمة عمر أبو النصر ، المكتبة الأهلية ، بيروت ١٩٣٤) .

(٢) نفسه ص ١١٢ - ١١٣ .

ويردّد في كل بلد تشرق عليه الشمس » [١] .

اما المفكر الانكليزي كريليام الذي اعتنق الاسلام ، أيضاً ، فيصف القرآن بأنه « من الوجه العلمي ، وبصرف النظر عن أنه كتاب موحى به ، ابلغ كتاب في الشرق ... وهو يتفجر بالمجازات السامية ويفيض بالاستعارات الباهرة » [٢] ويشير الى انه عثر في دائرة المعرف العامة Popualr Encyclopedia على نبذة نصّها كما يأتي « ان لغة القرآن معتبرة بأنها من افصح ما جاء في اللغة العربية ، فان ما فيه من محاسن الانشاء وجمال البراعة باقياً بلا تقليد ودون مثيل » [٣] .

ويخلص كويليام الى القول بأن هذا القرآن « هو كتاب حكمة ، فمن اجال طرف اعتباره فيه وامعن النظر في بدائع اساليبه وما فيها من الاعجاز رآه وقد مرّ عليه من الزمان الف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر اذا هو مع سهولته بليغ ممتنع ، ومع ايجاز مفيد للمرام بالتمام ، وكما أنه كان يرى مطابقاً للكلام في زمن ظهوره لهجة واسلوبا ، صناعة الكتابة قدّرت بلاغته وظهرت للعقول مزايا . وبالجملة فان فصاحته وبلاغته قد اعجزت مصاقع البلغاء وحيرت فصحاء الاولين والأخرين » [٤].

حتى اذا ما بلغنا المفكر والفنان الانكليزي المعروف روم لاندو ، فاننا نجده يؤكد ما سبق أن اعلنه عدد من الباحثين والمفكرين الذين المحنا اليهم من أن ترجمة القرآن الى لغة اخرى يكاد على المستوى الجمالي أن يكون عملاً مستحيلا ، وذلك « بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الايقاعية ، الى لغة اخرى ، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية الى العلم ، فاننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيّدة استطاعت ان تتلقف شيئا من روح الوحي المحمدي. والواقع ان كثيراً من المترجمين الاوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل

---

(١) البحث عن الله ص ١١١ - ١١٢ (ترجمة عمر أو النصر ، المكتبة الأهلية ، بيروت ١٩٣٤) .

(٢) العقيدة الاسلامية ص ١١٩ - ١٢٠ (تعريب محمد ضيا ، مطبعة هندية ، القاهرة ١٨٩٧) .

(٣) نفسه ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٤) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء اوروبة ص ٢٣ - ٢٥ (ترجمة معروف الرصافي ، مطبعة الولاية ، بغداد - ١٣٣٠ هـ) .

فحسب ، بل كانوا الى ذلك مفعمين بالحقد على الاسلام الى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والتعرّض . ولكن حتى افضل ترجمة ممكنة لقرآن في شكل مكتوب لاتستطيع أن تحتفظ بايقاع السور الموسيقي الآسر على الوجه الذي يرتلها به المسلم . وليس يستطيع الغربي ان يدرك شيئاً من روعة كلمات القرآن وقوتها الأ عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الاصلية » [1] .

ويمضي لاندو الى القول بأن « بين أيات قصار السور ترابطاً ايقاعياً برغم انه ليس ثمة أيما وزن نظامي . وفي الحق أن سماع السور تتلى في الاصل العربي ، كثيرا ما يخلّف في نفس المرء اثراً شبيها بأثر السحر أو التنويم المغناطيسي . لقد اريد بالقرآن ان يتلى في صوت جهير ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلاً لكي يحكم عليه حكماً ويقدره حق قدره ... وبوصفه كلمة الله الحقيقية كان معجزاً لا سبيل الى محاكاته ، ولم يكن ثمة ، بكل بساطة ، ايما شيء من مثله » [2] .

وينقل المستشرق الانكليزي سير توماس ارنولد رأياً عن الكاتب الاسباني الفار Alvar الذي عرف بتعصبه ضد الاسلام « يقرر فيه أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الاسلوب البليغ الجميل ، حتى أن المسيحيين لم يعهم إلاّ قراءته والاعجاب به ... » [3] .

ولا يسعنا أخيراً الأ أن نشير الى أن المستشرق الفرنسي بلاشير يكاد يكون من اكثر الغربيين الذين تعاملوا مع القرآن الكريم عطاءً عن الموضوع ، وبسبب من تخصصه بالعربية كان بمقدوره ان يقترب من القرآن اكثر وبخاصة في كتابيه المعروفين (تاريخ الأدب العربي) و (القرآن) ، واذ سبق وأن افردنا لمقولاته عن القرآن الكريم بحثاً في غير هذا المكان ، فلا مبرر لاعادة القول فيه مكتفين بإحالة القارئ اليه [4] .

(١) الاسلام والعرب ص ٣٦-٣٧ (الطبعة الثانية ، ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين بيروت-١٩٧٧) .

(٢) نفسه ص ٢٩٦ - ٢٦٧ .

(٣) الدعوة الى الاسلام ص ١٦٧ (الطبعة الثالثة ، ترجمة وتعليق حسن ابراهيم حسن ورفاقه ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة - ١٩٧١) .

(٤) انظر البحث الخاص ببلاشير بعنوان : (بلاشير : الوجه الأخر للإعجاز) من كتاب (الاسلام والوجه الأخر للفكر الغربي : قراءات) (قيد النشر) .

(٣)

المضمون

حتى اذا ما جئنا الى « المضمون » فاننا سنجد غير المسلمين يقولون فيه الكثير ، وسنضطر من اجل تحديد مسار المعطيات وإيضاحها الى أن نقسمها الى مقاطع عدة نتناول في احداها التقويم العام للمضمون ونقف في الاخرى عند العلاقة بينه وبين نتائج العلم الحديث ومعطيات العقل ، وفي مقطع ثالث سنتابع وجهات نظر مقارنة بين القرآن والكتب الدينية الاخرى لكي نخلص اخيراً الى التأثيرات المختلفة والعميقة التي تمخضت عن كتاب الله .

ولنبدأ بالتقويم العام حيث يبدو رجل القانون والفكر الفرنسي مارسيل بوازار واحداً من اكثر من كتبوا عن الموضوع غزارة مقاربة .

انه يعرّف القرآن بأنه « كلام حيّ في قلب الجماعة ... وهو بين الله والانسانية « الوسيط » الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى ، لأنه مْرضيّ به مرجعا اصلياً وينبوع الهام أساسياً » [١] . انه مرشد روحي ونظام خلقي وقانون دنيوي معاً » [٢] وهو يرفض « الفصل بين الروحي والزمني » لأنه « دين ونظام اجتماعي » [٣] . وهو ليس كتاباً مرحليا أو تعليما موقوتا «لاصلاح اخلاق عرب الجاهلية !» إنه « على العكس ، يحمل الشريعة الخالدة والكاملة ، والمطابقة للحقائق البشرية والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»[٤]، وهو « الكلام النهائي الذي لا يتحول ولا يتبدل ، وهو يحمل ويمثل (الشريعة) التي لا تغفل عن مخاطبة عواطف الانسان الداخلية وفطنته وعقله، ويتطلب التقيّد بما فيه جهداً معنويا دؤوبا » [٥] . والقرآن « يخاطب الانسان بكليّته : اعمق مشاعره - حسنة كانت أم سيّئة - وعمله اليومي من منظور قد نستطيع نسبته الى (علم النفس التطبيقي) ...» [٦]. وهو « حجر الزاوية في

(١) انسانية الاسلام ص ٥٢ .

(٢) نفسه ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) نفسه ص ٢٠٦ .

(٤) نفسه ص ١٠٩ .

(٤) نفسه ص ٦٤ .

(٦) نفسه ص ١٢٧ .

الاخلاقية الاسلامية . انه لا يصف الانسان بمفهومه الماورائي { الغيبي } لأن الروح من أمر الله وحده ، ولكنه يأمره بسلوك ينبغي اتباعه » و « يحدد الموجبات المترتبة على المؤمن في جميع حقول الحياة ، ويعرّفه بواجباته سواء كانت نحو الله أو نحو المجتمع »[1] و « يوفرّ للمؤمنين رباطاً روحياً ونفسانياً وقانونيا ذا جوهر ديني »[2] واخيراً فان « مفهوم القرآن للعالم » يسهم « اذ يقدّم الخليقة على أنها كل متناسق ومتوازن في التبعية لله، في رصّ بنيان المجتمع، اذ يغدو تجمّع المؤمنين نظاماً يتبوأ فيه كل انسان مكانه الحقيقي »[3].

فنحن اذن ازاء تقييمات للقرآن الكريم تمنح القارئ ، الأجنبي بخاصة ، تصوّراً دقيقاً وموضوعيا عن كتاب الله ، إذ قد صيغت بدقة وتركيز بالغين وتضمنت الملامح الأساسية للمضون القرآني ، واكدت على مرتكزات وقيم طالما ندّت عن العقل الغربي العلماني وبخاصة تلك التي تتعلّق بالارتباط بين الديني والقدرة المذهلة المتواصلة على التأثير، والتي يتميز بها المضمون القرآني .

ونحن هنا لسنا بصدد شرح وتحليل ما يقوله الأخرون عن كتاب الله ، لأنه واضح بيّن يكشف عن مغزاه لكل ذي عينين ، ومن ثم فاننا لن نحاول ان نطيل على القارئ باكثر مما فعلنا ، في محاولة استخلاص المؤشرات الاساسية لمقولات الرجل ، ولنتابع ما يقوله الأخرون .

درمنغم يشير الى أن القرآن « معجزة محمد { صلى الله عليه وسلم } الوحيدة» وأن « اسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال ... الى يومنا هذا يثيران ساكن من يتلونه ، ولو لم يكونوا من الاتقياء العابدين » ولقد « كان محمد «صلى الله عليه وسلم » يتحدّى الانس والجن بأن يأتوا بمثله ، وكان هذا

(١) انسانية الاسلام ص ١٤٢ ، ١٤٦ .

(٢) نفسه ص ٢٢٩ .

(٣) نفسه ص ١٤٦ .

فهو بوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات مالم يساعده على ذلك ربّه العليّ القدير . ان القرآن لا يعقل أن ينبثق عن غير الذات التي وسع علمها كل شيء في السماء والأرض »[1] .

وثمة برهان آخر يؤكد - كما تلحظ فاغليري - المصدر الالهي للقرآن ذلك أن نصّه بقي كما هو دون أي تزوير أو تحريف[2] . وتلك مسألة سبق وأن وقفنا عند حدودها التوثيقية في بدايات هذا المبحث .

أما الباحثة الالمانية الدكتورة الس ليختنستادتر التي درست العلوم العربية والاسلامية عن كثب ، فانها تؤكد على المنظور السياسي للمضمون القرآني ، وهو واحد من أشد المعطيات القرآنية أهمية واكثرها حضوراً في نسيج السور والأيات « انه من الضروري لادراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي ، ان ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساساً لأداة الحكم المعقدة التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث . فان النبي { صلى الله عليه وسلم } يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله في كماله الالهي وبين خليقته التي يتجلى فيها بفيوضه الربانية وأيتها الكبرى الانسان . وان واجب الانسان أن يعمل بمشيئة الله للتقريب والتنسيق بين العالم الالهي وبين عالم الخلق والشهادة ، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه انسانية تتجرعه اعمق الاوامر الالهية والزمها ، وهي اوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والاحسان ، وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الانسان لتحقيق نجاته ، فهو ثم مسؤل عن أعماله ومسئول كذلك عن مصدره »[3] .

الكتّاب الانكليز أيضاً في امريكا وبريطانيا أدلوا بدلوهم في الموضوع واستقوا الكثير من مائه العذب وقالوا كلمتهم فيه .

في امريكا يلحظ ايرفنج شمولية القرآن المعرفية والتشريعية على السواء

---

(١) دفاع عن الاسلام ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) نفسه ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) الاسلام والعصر الحديث (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ١٩ ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب اللبناني، بيروت - ١٩٦٦) .

التحدّي أقوم دليل على صدق رسالته » ثم يخلص الى القول بأن هنالك بالتأكيد « ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه » [١].

دي كاستري يؤكد بدوره أن القرآن يعد « دليلاً على صدق رسالة محمد [صلى الله عليه وسلم ... » وأنه « لا يزال الى يومنا هذا سراً من الأسرار التي تعذّر فك طلاسمها ، ولن يسبر غور هذا السرّ المكنون الا من يصدّق بأنه منزل من الله » [٢] .

ويرى ايكين دينيه « ان معجزات الانبياء الذين سبقوا محمد [صلى الله عليه وسلم] كانت في الواقع معجزات وقتية ، وبالتالي معرّضة للنسيان السريع بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية : (المعجزة الخالدة) وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها المستمرّ ، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله . وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي احرزه الاسلام ، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون لأنهم يجلهون القرآن ، أو لأنهم لا يعرفونه الا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة » [٣] وهو يتساءل : هل إن « هذه الآيات الخارقة تأتي من محمد [صلى الله عليه وسلم] ذلك الأميّ الذي لم ينل حظاً من المعرفة ؟ » ثم يجيب : « كلا ! إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد ، وأنه لا مناص من الاعتراف بان الله العليّ القدير هو الذي املى تلك الآيات البيّنات » [٤] .

ويتحدث الباحث الفرنسي المعاصر ريسلر عن المضمون المعرفي للقرآن فهو « فوق أنه كتاب ديني » فانه يتضمن « خلاصة جميع المعارف » ولقد ظل «زمنا طويلا اول كتاب يتخذ للقراءة الى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية » [٥] . كما يتحدث عن شمولية القرآن وتوحيده بين الديني

---

(١) حياة محمد ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٢) الاسلام : خواطر وسوانح ص ٢٠ .

(٣) محمد رسول الله ص ١١٨ .

(٤) نفسه ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٥) الحضارة العربية ص ٤٥ .

والاخلاقي والقانوني ، وآخذه بيد المظلومين ، ورفضه للشرّ والبؤس والخرافة « إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا ، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الاخلاقي ، ويسعى الى خلق النظام ، والوحدة الاجتماعية ، والى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات . انه يسعى الى الأخذ بيد المستضعفين ، ويوصي بالبر ويأمر بالرحمة ... وفي دائرة التشريع وضع قواعد لأدقّ التفاصيل للتعاون اليومي ، ونظم العقود والمواريث ، وفي ميدان الأسرة حدّد سلوك كل فرد تجاه معاملة الاطفال والارقاء والحيوانات والصحّة والملبس ، الخ ... » [1] وهذه الشمولية القرأنية يلحظها لوبون ، أيضاً ، فيصف كتاب الله بأنه « قانون ديني وسياسي واجتماعي » [2] .

وعن القيم الخلقية التي يؤكدها كتاب الله ويدعو اليها يقول سيديّو المستشرق الفرنسي المعروف : « لا تجد في القرآن صفحة لا توحي بمحبة شديدة لله ... وفيه حثّ كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي ... وفيه دعوة كبيرة الى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم ، وفيه مقت للعجب والغضب ، وفيه اشارة الى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر ، وفيه حضّ على الايفاء بالعهود حتى مع الكافرين ، وتحريض على خفض الجناح والتواضع ، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون اليهم ، لا لعنهم ... ويكفي جميع تلك الاقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدا لاثبات صفاء قواعد الاخلاق في القرآن ... انه أبصر كل شيء ... » [3] .

ويلحظ بلاشير ذلك التوازي المعجز في النصّ القرآني بين الآني والمستقبلي ، بين المرحلي والدائم ، وبين الارتباط بالتاريخ والتحرّر منه « إن النصّ القرآني واقع في مجال آخر بعيد عن مجال التاريخ ، فهو ينزع الى أعلى

(١) الحضارة العربية ص ٥١ .

(٢) النتائج الاولى للحرب (عن محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جزء ١ ص ٧٤ ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة - ١٩٦٨) .

(٣) تاريخ العرب العام ص ٨٩ ، ٩٨ - ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٧ (ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة - ١٩٤٨) .

مع بقائه في حيِّز التاريخ »[1] والواقع ان هذه الثنائية المذهلة التي قلّما التفت اليها الباحثون لتمثّل واحدة من أشد الخصائص القرآنية اهمية وارتباطاً في الوقت نفسه باعجاز المضمون القرآني باعتباره حصيلة رؤية إلهية شاملة تتعامل مع الجزئي والكلي ، مع الموقوت والدائم ، ومع النسبي والمطلق ... تتغلغل في شرايين التاريخ وتتجاوزه في الوقت نفسه مصعّدة صوب الأعلى باتجاه مستويات انسانية لا تخضع لمقولات التاريخ المرحلية المحدودة ولا تأسرها النسبيات .

اننا لو حاولنا متابعة أسباب النزول لرأينا حشوداً من التفاصيل والجزئيات التاريخية ، بل والشخصية التي قد لا تستحق أن تكون ذات قيمة تاريخية . ومع ذلك فان التعاليم القرآنية ، بسبب من واقعيتها ، لا تتخلّق في الفراغ ، انما هي ، وفق أحدث النظريات التعليمية والتربوية تقترن شرطياً بهذه الواقعة المنظورة أو تلك ، ولكنها ما تلبث أن تتحرّر منها لكي تكون تعليماً مطلقاً لا يحدّه زمان أو مكان ، أو تأسره وقائع وجزئيات مما تتمخضّ عنه حركة التاريخ ، ولن يكون بمقدور إنسان مهما امتلك من لماحية وذكاء أن يحققّ هذا الوفاق العجيب بين ما هو كائن وما يمكن أو يجب أن يكون !

إن هذا يذكرنا باحدى الميزات التي سبق وأن أشار اليها المفكر النمساوي ليوبولد فايس (محمد أسد) الذي انتمى الى الاسلام وقدم عنه أعمالاً ودراسات تكاد تكون من ادقّ ما كتب عن هذا الدين : « لقد عرفت الآن بصورة لا تقبل الجدل ان الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يدي كان كتاباً موحى به من الله . فبالرغم من أنه وضع بين يدي الانسان منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً ، فانه توقّع بوضوح شيئاً لم يكن بالامكان أن يصح الا في عصرنا هذا ، المقعد الآلي . لقد عرف الناس التكاثر في جميع العصور والأزمنة ولكن هذا التكاثر لم ينته قط من قبل الى أن يكون مجرّد اشتياق الى امتلاك الاشياء والى أن يصبح ملهاة حجبت رؤية انما شيء آخر ... اليوم اكثر من أمس وغداً اكثر من اليوم ... لقد عرفت أنّ هذا[2] لم يكن مجرد حكمة انسانية من انسان عاش في

---

١) تاريخ الأدب العربي جزء ٢ ص ٤٩ .

٢) يشير الى سورة التكاثر التي تعبّر باعجاز عن أزمة القرن العشرين .

الماضي البعيد في جزيرة العرب النائية . فمهما كان هذا الانسان على مثل هذا القدر من الحكمة فانه لم يكن ليستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرون . لقد كان ينطق لي من القرآن صوت اعظم من صوت محمد »[١] .

ان هذا التوازي ينطبق أيضاً على الأسلوب القرآني الذي عرف كيف يخاطب عرب القرن السابع الميلادي ، ويهزّهم حتى الاعماق ، وهو في الوقت ذاته قادر على احداث الهزّة نفسها لدى قارئيه في القرن العشرين والقرن الخامس والعشرين !! فقد تمتلك قصيدة ما أو قطعة أدبية أو فنية هذه القدرة على التأثير بغض النظر عن المرحلة الزمنية ، ولكن هذا لا يعد وأن يكون تأثيراً جماليا صرفاً فضلاً عن كونه موقوتاً . أما التأثير القرآني فانه يختلف تماما . ان يهزّ الأفئدة حتى البكاء يقتلعها من الجذور ثم يعيد تركيبها من جديد فاذا باصحابها شخوص جديدة بالكلية وكأنها بُعثت على غير ما كانت عليه !

لنرجع الى ما قاله « الآخر » عن مضمونية هذا الكتاب المعجز ، فهم كثر وسيطول بنا السرى لو حاولنا أن نقف عند كل واحد منهم محلّلين أو شارحين .

فاغليري الايطاليه ترى « أن معجزة الاسلام العظمى هي القرآن » وأن «أنباء تتصّف بيقين مطلق » [٢] ، وأنه « ممتنع عن التقليد والمحاكاة » في اسلوبه ومادته . « فنحن نقرأ فيه ، الى جانب أشياء اخرى كثيرة ، تنبؤاً ببعض أحداث المستقبل ، ووصفاً لوقائع حدثت منذ قرون ، ولكنها كانت مجهولة بوجه عام . إن ثمة اشارات كثيرة الى نواميس الطبيعة والى علوم مختلفة ، دينية ودنيوية . إننا نعي ثمة على ذخائر واسعة من المعرفة تعجز اكثر الناس ذكاء واعظم الفلاسفة واقدر رجال السياسة . ولهذا الأسباب كلها لا يمكن للقرآن أن يكون من عمل رجل غير مثقف ، قضى حياته كلها وسط مجتمع جافٍ بعيد عن اصحاب العلم والدين ، رجل اصرّ دائما على أنه ليس الاّ رجلاً مثل سائر الرجال

---

(١) الطريق الى مكة ص ٣٢٨ - ٣٢٩ (ترجمة منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٥٦) .

(٢) دفاع عن الاسلام ص ٥٦ - ٥٧ .

فيصفه بأنه « حوى كل شيء » و « جميع القوانين » ، وهو يفسّر الظاهرة بأن القرآن « هو خاتم الكتب السماوية » [1] . أما على مستوى القيم الخلقية فان القرآن « يدعو الى الرحمة والصفاء والى مذاهب أخلاقية سامية » [2] .

الصحفية الامريكية ديبورا بوتر التي اعتنقت الاسلام أخيراً تؤكد « أن المضمون الالهي للقرآن الكريم هو المسئول عن النهوض بالانسان وهدايته الى معرفة الخلق ، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر »[3] .

كات ستيفنز ، المغنّي الامريكي المشهور ، الذي انتمى للاسلام أيضاً ، يحكي عن أبعاد المضمون القرآني ، بكلمات قلائل ، وبعفوية الفنان المندهش، ولكنها تعني الكثر « القرآن يقول الكثير عن الزواج ، وعن العلاقة بين الرجل والمرأة ، وعن أي موضوع آخر تقريباً » [4] .

ديورانت المؤلفّ المعروف ، صاحب كتاب (قصة الحضارة) ذي الثلاثين جزءاً ، يتحدث عن تأثير القرآن في الأمة التي تنتمي اليه ، وهو تأثر يتميزّ بالشمولية والعمق والامتداد . فمنذ اربعة عشر قرناً وكتاب الله « يستثير خيالهم ، ويشكل اخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال » ، ومنذ أربعة عشر قرنا « والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد ، واقلّها غموضاً ، وأبعدها عن التقيّد بالمراسم والطقوس ، واكثرها تحرّراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له اكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الاخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضّهم على اتباع القواعد الصحيّة ، وحرّر عقولهم من كثير من الخرافات والاوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسّن احوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الاذلاّء الكرامة

(١) حياة محمد ص ٧٢ (الطبعة الثانية ، ترجمة وتعليق علي حسني الخربوطلي ، دار المعارف ، القاهرة - ١٩٦٦) .

(٢) نفسه ص ٣٠٤ .

(٣) عرفات العشّي : رجال ونساء اسلموا ٨ / ١١٣ .

(٤) نفسه ١٠ / ١٠٣ .

والعزّة، وأوجد بين المسلمين ... درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض » (١) .

أما الدكتور سدني فيشر أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية ، فانه يؤكد على شمولية المعطيات القرآنية وتكاملها ، فهو « كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل ما فيه كلاماً عن الفرائض والشعائر ، وان الفضائل التي يحثّ عليها المسلمين من أجل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق ، وتتجلّى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره » (٢) .

في بريطانيا نلتقي كذلك بالعديد من الباحثين والمفكرين وهم يتحدثون عن كتاب الله ، بعضهم ظل على دينه ، وبعضهم اعتنق الاسلام ما دام أن كتابه ومرشده وهاديه هو هذا الكتاب .

هاملتون كَب ، شيخ المستشرقين الانكليز ، يردّ على الرؤية النصرانية القاصرة التي لا ترى في القرآن الكريم ، ولا في الاسلام عموما ، تأكيداً على القيم الخلقية كذلك الذي تمارسه النصرانية « فاذا رأى أحد - يقول كَب - أن الحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا اليه ذلك التعريف الشامل للبرّ في تلك الآية العظيمة (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتي المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، اولئك الذين صدقوا واولئك هم المقتون) (٣) .

فالبرّ اذن تاج الايمان الحقّ ، حين يدرك المؤمن أخيراً أن الله شاهد أبداً ، ويستجيب لشهوده في كل افكاره واعماله » (٤) .

---

(١) قصة الحضارة ، جزء ١٣ ص ٦٨ - ٦٩ (الطبعة الثانية ، ترجمة محمد بدران وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٧) .

(٢) الشرق الاوسط في العصر الاسلامي (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ٥٤) .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

(٤) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٥٤

الدينية ، حيث ها هنا أيضاً تميل النصرانية المحرّفة لأن تحتكر لنفسها ولعدد من الأديان المحرّفة مثلها الغني الوجداني الذي يمنح البعد الاصيل للتجربة الدينية ، ويبعد بها عن جفاف التعاليم والتشريعات وهياكلها المفرغة التي تنظم شؤون الجماعة ، ولكنها قد لا تمنح الذات خصباً روحيا أو وجدانياً في التعامل مع الله ...إن القرآن ، يردكّب « سجلّ لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية - تجربة ذات طرفين : واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الآخذ بنصيب في تلك التجربة . وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعي ليسكنه روح تعاليمه لا بفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضاً ، فانه يحاول أن يستملك شيئاً من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب { صلى الله عليه وسلم } . ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه ، لأيمانه بأنه كلام الله . ولو لم يكن هذا الايمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حيّ للالهام والاستبصار الديني »[1] .

وإذن فان كتاب الله قد أمسك بالمسألة من طرفها كما هو معروف : الجزئي والمطلق ... شؤون الحياة الأرضية والتجربة الروحية التي تقود المؤمن الى السماوات . وإذن فان النصرانية لا تعدو أن تكون تجزيئاً للتجربة البشرية ، وجنوحاً بالموقف الديني الذي يسعى الى تغذية الوجدان البشري ، على أرضية مترعة بالشروخ والضغوط والتناقضات ... في عالم مثخن بالفساد والجراح . وهذا لن يكون ... هذا لن يمكن الوجدان من التحقق الديني لأنه سيصيبه بالازدواجية وسيشطره شطرين !

مونتغمري وات الذي يمثل آخر جيل المستشرقين الكبار يتوغل في هذا التوازن القرآني بين الديني والدنيوي ، باتجاه آخر . إن القرآن يعتبر العقيدة ، أو الرؤية الدينية للعالم هي الأساس الذي تقوم عليه وتمخض عنه سائر الظواهر

(١) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٥٤ .

والبنى . انها أسّ الأسس وسبب الأسباب ، وبهذا يلتقي ، بشكل من الاشكال ، مع سلفه كَب ، إن القرآن ، يقول وات « يعتبر قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وانه لا يمكن تقويمها الاّ باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء . وانه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجاح جهد محمد { صلى الله عليه وسلم } ... »[1].

ونحن نعرف جيداً كيف أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صرف جهده كله عبر العصر المكي ذي الثلاثة عشر عاما على أمر واحد : تأكيد العقيدة الجديدة ، وتدمير سائر العقائد الجاهلية . وأنه لم يبدأ البناء التشريعي واقامة الدولة إلاّ بعد أن ضمن سلامة الأساس وعمقه وايغاله في نفوس اصحابه .

واذا كنا قد أشرنا الى اثنين من المستشرقين الانكليز النصارى ، فلنستمع كذلك الى واحد منهم انتمى للاسلام : كويليام ، ما الذي يريد أن يقوله عن القرآن .

انه يبدأ بالتأكيد على ما يتميز به كتاب الله من شمولية ، ومن تناغم بين الثنائيات كافة . تلك الثنائيات التي وضعت الأديان المحرفة والمذاهب الوضعية بينها الحواجز والمتاريس ، فعزلتها عن بعضها وقادتها الى أن تعلن الحرب فيما بينها ، تلك الحرب التي لن يكون ضحيتها سوى الانسان ... ثم جاء كتاب الله لكي يوقف الاقتتال ويعيد الوفاق ، فلم تقتصر احكامه « على الفرائض الأدبية والدينية . إنه القانون العام للعالم الاسلامي ، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية . ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية الى أمور الحياة الدينوية، ومن حفظ النفس الى صحّة الأبدان ، ومن حقوق الرعية الى حقوق كل فرد ، ومن منفعة الانسان الذاتية الى منفعة الهيئة الاجتماعية ، ومن الفضيلة الى الخطيئة ، ومن القصاص في هذه الدنيا الى القصاص في الآخرة ... »[2] .

---

(١) محمد في مكة ص ١٣٥ (تعريب شعبان بركات ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت بدون تاريخ) .

(٢) العقيدة الاسلامية ص ١٢٢ - ١٢٣ .

يواصل كويليام تأكيده على هذه الخصيصة القرآنية فيقول : « اننا إذا أمعنّا النظر الى ما فيه من الاحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجلية تجده جامعاً لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه ... وكذا نراه ناهياً عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الافعال ومساوئ الاخلاق ... وكم فيه ما عدا ذلك أيضاً ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك ، وما يضمن للرعية الآمن والدعوة من الاحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلاً عن القول » [1] . وهكذا فان تأمّل الاحكام القرآنية « بعين البصيرة » والتعامل معها بصدق وجدّية ، يقوده كما يؤكد كويليام ، الى الحياة السعيدة التي يطمح اليها كل انسان » [2] .

ولا ينسى « كويليام أن يشير الى حقيقة أن مرور الزمن ، وتزايد النضج العقلي للانسان وتراكم الخبرات المعرفية هي جميعا لصالح المبادئ والحقائق والقيم التي شملّها القرآن « فكم في القرآن العظيم من غوامض الحكم ودقائق المعاني ما لم يعرف حق المعرفة بل لم يسبر غوره حتى اليوم ، والسبب في ذلك هو نقصان عقل البشر عنه . فلا شك أنه سينكشف كلما ارتق الافكار في درجات الكمال واتّسع نطاق الفنون والمعرف » [3]. إن ما تضمّنه القرآن « من المطالب العالية والفنون الغالية ما عرف حق المعرفة الى الآن ، بيد أنه سيأتي زمان يعرف فيه كما هو » [4] .

ومن العرب غير المسلمين طائفة قرأت كتاب الله بالجدية والموضوعية المطلوبتين ، وخرجت بنتائج وملاحظات عن المضمون القرآني سنؤشر على بعض منها ... ها هنا يزول حاجز اللغة فتكون المعاينة لكتاب الله أشدّ قربا ، ويكون التعبير اكثر حرارة وصدقا .

---

(١) أحسن الأجوبة ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) العقيدة الاسلامية ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٣) أحسن الأجوبة ص ٢٦ .

(٤) نفسه ص ٢٨ .

يصف ابراهيم خليل أحمد ، رجل الدين القبطي الذي اعتنق الاسلام ، القرآن الكريم بأنه « معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان »[1] ، وهو يذكرنا بعبارة فيليب حتي ، المؤرخ اللبناني المعروف التي تقول : « من جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى »[2] . ويتحدث أحمد سوسة ، اليهودي العراقي الذي انتمى الى الاسلام هو ، أيضاً ، عن القرآن الكريم فيصفه بأنه « جاء غرّة ناصعة في صدر التاريخ الانساني ، فريداً في مقامه الالهي » وان « العالم سيحتفظ به كتراث سرمدي يمثل كلام الله في خلقه ، ودليل الهداية البشرية الى حياة انسانية جليلة سامية »[3] . ويواصل سوسة حديثه فيقول « لما كان القرآن الكريم قد تناول كل انواع التفكير والتشريع ، فقد يكون من العسير على انسان واحد ان يحكم في هذه المواضيع كلها » ويتساءل « هل من مناص للمرء من الانجذاب الى معجزة القرآن بعد تمعّنه في أمية نبي الاسلام ووقوفه على أسرار حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؟ » وما يلبث أن يجيب « لقد جعل الله معجزة القرآن وأمية محمد (صلى الله عليه وسلم) برهاناً على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له »[4] .

ويكاد يكون نصري سلهب ، المفكر والأديب النصراني اللبناني ، من اكثر الكتّاب حديثاً عن كتاب الله ، وان المرء ليلمس في كلماته بوضوح جمرة الاخلاص للحق التي يمنحها القرآن لكل اولئك الذين يتعاملون معه بالعشق المطلوب .

يعرّف القرآن بأنه « معين روحي وخلقي لا ينضب » وأن « من يرده لن يعرف العطش الي روحه سبيلا » إنه « كلام الله ومن كان كلام الله زاده في الحياة والمعاد فلن تكون نهاية مطافه الأ ملكوت السماء ! »[5] واننا لبأمسّ

---

(١) محمد في التوراة والانجيل والقرآن ص ٤٧ - ٤٨ (الطبعة الثانية ، مكتبة الوعي العربي ، القاهرة - ١٩٦٥) .

(٢) الاسلام منهج حياة ص ٦٢ .

(٣) في طريقي الى الاسلام ١ / ١٧٤ .

(٤) نفسه ١ / ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) في خطى محمد ص ٣١ (دار الكتاب العربي ، بيروت - ١٩٧٠) .

الحاجة الى الاسلام لأن « قرآنه الرائع » يمكن « أن نتعلم منه الكثير ! »
هذا الكتاب المعجز بما أنه صادر عن الله سبحانه فان « آياته احتوت الحقيقة الأزلية الخالدة التي لا تتبدل بل تتواضح وتتكشف للناس ، مرافقة التطور في جميع مراحله ... ومنها يعرف المؤمن زاداً لحياته ، وسيظل يعرف الى ما يشاء مالك يوم الدين » [٢] . وليس في القرآن كله « ذكر لمعجزة او لأعجوبة صنعها النبي { صلى الله عليه وسلم } فحسبه أن المعجزة الكبرى كانت بواسطته . حسبه ان الله اختاره من دون البشر لينَزّل عليهم تلك الثروة التي لم يرو التاريخ أن ثروة بحجمها جاءت على لسان رجل واحد . حسبه ان يكون قد نثر تلك الثروة بحرفيتها على الناس فأفادوا منها جميعهم . وستظل مدى الدهر ينبوعاً يرده العطاش الى الحقيقة ، والجياع الى الله وملكوته » [٣] .

وهو يتحدث عن شمولية القرآن وتغطيته لكافة المسائل المعضلات البشرية فيقول « لقد كان القرآن وسيظل ، الينبوع الذي راده ويرده المؤمنون ليرووا من معينه عطشهم الى الفضائل ... عطفاً على يتيم ، وعطاء لسائل ، ونصرة لضعيف ، وسيفاً بوجه ظالم ، ورفقا وتسامحا وعدلا . ولقد كان ، وسيظل ، الكتاب الذي وضع لكل مشكله حلاً ، ولكل سؤال جوابا » [٤] . ويواصل سلهب تأكيده على هذه الخاصية فيقول « لكأن الله ، جلّ جلاله ، أبى الا أن يجعل من كتابه الكريم محيطاً تربويا اخلاقيا ، فعالج اموراً لا تخطر للمرء ببال ، ولا يتوقع أن يجدها في كتاب ظنه سفر ايمان وعقائد دينية فحسب . ولكن غنى القرآن ، بل عظمته ، هي هنا بالذات ، لقد اراده الله هدى ونوراً للعالمين ، يهديهم الى خالقهم عن طريق الخير والحقّ ، ويضيئ لهم طريق الحياة الدنيا ، فيمضون فيها بخطى ثابتة اصلاب العزائم منشرحي القلب » [٥] .

---

(١) في خطى محمد ص ١٢١ (دار الكتاب العربي ، بيروت - ١٩٧٠) .
(٢) نفسه ص ٣٣٥ .
(٣) نفسه ص ٣٣٧ .
(٤) نفسه ص ٣٤٩ .
(٥) نفسه ص ٣٦٩ - ٣٦٥ .

وانطلاقاً من هذه الرؤية فان القرآن ، كما يلحظ سلهب « يخاطب المسلمين فحسب ، ولا يعنى بشؤونهم فحسب ، إنما هو يخاطب البشر على إطلاقهم ، ويعنى بشؤونهم جميعا ... فلو اقبل عليه البشر وعبّوا من احكاه وتوصياته فارتووا منها وعملوا بها ، لكانت البشرية في وضع افضل بكثير مما هي عليه »[1] لكن المشكلة هي ان كتاب الله « بمحوه الظلمات » و « نثره الضياء على الكائنات » « يكاد يكون بالنسبة الى غير المسلم مجهولا ، أو هو معروف على غير حقيقته »[2] .

وهكذا تجيء معطيات الباحثين والمفكرين من غير المسلمين في هذا «الكتاب» الذي لم يدرك على حقيقته تماما ، ضرورة من الضرورات الموضوعية والعقيدية والمنهجية ، ليس بالنسبة للمسلمين انفسهم بقدر ماهي ملحّة بالنسبة لكافة الجماعات المنتشرة خارج دائرة الاسلام ، والتي يمكن أن يكون اقترابها من كتاب الله وفهمها لأبعاده كافة ، خطوة حاسمة قد تقرّبها من الحقيقة المنشودة التي ضلّت المسالك اليها ، وقد تمنحها سبل الخلاص !

---

(١) لي خطى محمد ص ٣٥٨ (دار الكتاب العربي ، بيروت - ١٩٧٠) .

(٢) نفسه ص ٣٤١ .

(٤)

الإعجاز العلمي



وثمة ما يرتبط بالمضمون القرآني مما تحدّث عنه غير المسلمين فاطالوا الحديث . انه - بايجاز - الاعجاز العلمي لكتاب الله .

ويكاد يكون المفكر والعالم الفرنسي المعروف موريس بوكاي على رأس من عالجوا هذه المسألة حتى من الباحثين المسلمين أنفسهم ، ذلك أن الكتاب الذي قدّمه في هذا المجال بعنوان (القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم)[1] هو حصيلة دراسة علمية ميدانية متأنية استغرقت السنوات الطوال وتمخّضت ، باعتمادها على منهج موضوعي محايد في العمل ، عن نتائج بالغة الأهمية بصدد المصدر الالهي الحاسم للقرآن ، وتهافت أية دعوة قد تميل لأن تجعله عملاً بشريا .

وبالنظر للقيمة العلمية البالغة للكتاب فقد عالجناه في بحث مستقلّ في غير هذا المكان [2] ولذا ستجدنا ملزمين بعدم الوقوف عنده ونحن نتابع نماذج فحسب مما قاله غير المسلمين بصدد الاعجاز العلمي للقرآن .

تقول ديبورا بوتر، الصحفية الامريكية التي انتمت الى الاسلام عام١٩٨٠م ، « عندما اكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا هو الحق الذي يشتمل على الاجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها ، إنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية تجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية . اما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع واسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة ، وأن هذا الكلام رائع واسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكالم هو من عند الله لا محالة »[3]. وتتساءل بوتر « كيف استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) الرجل الأمي الذي نشاء في بيئة جاهلية، أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها ؟» ثم تخلص الى النتيجة ذاتها

---

(١) دار المعرفة ، القاهرة - ١٩٧٨ .

(٢) انظر كتاب (الاسلام والوجه الآخر للفكر الغربي) (قيد النشر) .

(٣) رجال ونساء أسلموا ٨ / ٠٠

التي خلص اليها المتعاملون - بصدق - مع كتاب الله : « لابدّ اذن ان يكون هذا الكلام هو كلام الله عزّ وجل » [1] .

وعامر علي داود ، النصراني الهندي الذي اعتنق الاسلام ، أيضا ، يتحدث عن تجربته مع الكتاب الفريد : « تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الانجليزية ، لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين ، فشرعت في قراءته وتدبّر معانيه . لقد استقطب جل اهتمامي وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الاجابة المقنعة عن سؤالي المحيّر { الهدف من الخلق } في الصفحات الاولى من القرآن الكريم ... لقد قرآت الآيات (٣٠-٣٩) من سورة البقرة ... وهي آيات توضحُ الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف ... ان هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق » [2] .

وما دمنا بصدد اولئك الذين قادهم كتاب الله للانتماء الى هذا الدين فلنستمع الى ما يقوله ابراهيم خليل احمد من أن « القرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه : من طب وفلك وجغرافيا وجيولوجيا وقانون واجتماع وتاريخ ... ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق اليه القرآن بالبيان والتعريف » [3] . وهو يشير الى اليقين الحاسم الذي يمكن أن تمنحه حقيقة كهذه لغير المؤمنين « اعتقد يقيناً أني لو كنت انساناً وجودياً ... لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية وجاءني نفر من الناس بربّ العزّة والجبروت ، خالق السماوات والارض ولن اشرك به أحدا ... » [4] .

أما أحمد سوسه فان ميله للاسلام يرجع في أساسه كما يقول في سيرة حياته،

---

(١) رجال ونساء أسلموا ٨ / ٩-١٠ .

(٢) نفسه ٧ / ١١٦ - ١١٨ .

(٣) محمد في التوراة والانجيل والقرآن من ٤٧ - ٤٨ .

(٤) نفسه ص ٤٣ .

الى الأيام التي شرع فيها بمطالعة القرآن الكريم [١] ، وهو يرى أن معجزات القرآن الكريم هي اكثر بروزاً في عصرنا الحالي ، عصر النور والعلم ، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخمول » [٢] .

وعبدالله كويليام الانكليزي المسلم يشير الى المسألة نفسها عندما يقول «كم في القرآن العظيم من غوامض الحكم ودقائق المعاني مالم يعرف حق المعرفة بل لم يسبر غوره حتى اليوم ، والسبب في ذلك هو نقصان عقل البشر عنه ، فلا شك أنه سينكشف كلما ارتقت الافكار في درجات الكمال واتسع نطاق الفنون والمعارف » [٣] . وعندما يقول « ان ما في القرآن من المطالب العالية والفنون الغالية ما لم يعرف حق المعرفة الى الآن ، بيد أنه سيأتي زمان يعرفه فيه كما هو » [٤] .

وتشير الليدي ايفلين كوبولد ، الانكليزية المسلمة « الى ما جاء في القرآن عن خلق العالم ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين » وكيف « أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة » [٥] .

أما الصحفي والمفكر النمساوي المعروف ليوبولد فايس (محمد أسد) فيتحدث عن خبرته الشخصية في هذا المجال ، وهو يقارن بين ما قالته (سورة التكاثر) وبين التكاثر الذي يأخذ بخناق القرن العشرين « لقد عرفت الآن بصورة لا تقبل الجدل ، ان الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يدي كان كتابا موحى به من الله » [٦] . وهو يشير الى أن بدء تنزيل القرآن ونقطة انطلاقه في الأساس كان تأكيداً « لوعي الانسان وعقله ومعرفته » [٧] .

---

(١) في طريقي الى الاسلام ١ / ٥١ .

(٢) نفسه ١ / ١٨٥ .

(٣) أحسن الأجوبة ص ٢٦ .

(٤) نفسه ص ٢٨ .

(٥) البحث عن الله ص ٤٥ .

(٦) الطريق الى مكة ص ٣٢٨ .

(٧) نفسه ص ٣٠٣ .

وثمة من غير الذين انتموا للاسلام من قالوا كلمتهم في هذا الاعجاز فالدكتور ميلر بروز رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه ، واستاذ الفقه الديني في جامعة ييل الامريكية يؤكد ، وهو يتحدث عن الاسلام « أنه ليس هناك شيء لاديني في تزايد سيطرة الانسان على القوى الطبيعية ، وهناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أن المجموعة الشمسية خلقت لكي يدرس الانسان علم الفلك ويستخدمه في حياته : (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)[١] . وكثيرا ما يشير القرآن الى اخضاع الطبيعة للانسان باعتباره احدى الآيات التي تبعث على الشكر والايمان ... ويذكر القرآن - لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب - ولكن يذكر السفن أيضاً ... فاذا كان الجمل والسفينة من نعم الله العظيمة ، افلا يصدق هذا اكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة ؟ »[٢]. وهو - أي ميلربروز- يرى « ان أعظم نتائج العلم يمكن أن تستخدم في أغراض هدمية أو بنائية »، وأن هذا « ربما كان هو المقصود بما ورد في القرآن خاصاً باستخدام الحديد : (وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)[٣]. وأظهر مثال من هذا الآن بالضرورة هو استخدام النشاط الذري - الذي نشطت بحوثه - لضرورة حربية ...)[٤] . ويشير كذلك الى ان القانون الذي يحكم الكون والذي اكده اينشتاين بمواجهة الصدفة والاحتمال ، ويقارنه بالآية الكريمة (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين) [٥] ، فيجد تشابهاً في الأساس بين الآية وبين الفرضية التي يؤكدها أينشتاين .

يوجينا ستشيجفسكا ، الباحثة البولونية المعاصرة ، تلحظ في القرآن الكريم

---

(١) سورة يونس ، أية ٥ .

(٢) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ٥١ - ٢٥ (الطبعة الثانية ، تأليف جماعة من الباحثين ، جمع وتقديم محمد خلف الله ، مكتبة النهضة المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ، القاهرة - ١٩٦٢) .

(٣) سورة الحديد ،آية ٢٥ .

(٤) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ٥٤ .

(٥) سورة الانبياء ، آية ١٦ .

« حقائق علمية لم يعرفها العالم الأ بعد قرون طويلة » [1] . وفاغليري الايطالية تجد فيه « تنبّؤاً ببعض أحداث المستقبل ووصفاً لوقائع حدثت منذ قرون ، ولكنها كانت مجهولة على وجه عام » كما تجد اشارات كثيرة الى نواميس الطبيعة ، والى علوم مختلفة ، دينية ودينوية وثمة « ذخائر واسعة من المعرفة تعجز اكثر الناس ذكاءً ، واعظم الفلاسفة ، وأقدر رجال السياسة » ، وتخلص الى القول بأنه « لهذه الأسباب كلّها لا يمكن للقرآن أن يكون من عمل رجل غير مثقف ، قضى حياته كلها وسط مجتمع جافٍ بعيد عن أصحاب العلم والدين ، رجل اصّر دائما على أنه ليس ألاّ رجلاً مثل سائر الرجال فهو بوصفه هذا عاجز عن اجتراح المعجزات مالم يساعده على ذلك ربه الكليّ القدرة . إن القرآن لا يعقل أن ينبثق عن غير الذات التي وسع علمها كل شيء في السماء والأرض » [2] .

وهي تلاحظ جيداً واحداً من المبادئ القرآنية الأساسية في دائرة التعامل مع المعطيات الكونية ، وهي أن القرآن الكريم لا يطرح تفاصيل وجزئيات يحدّ بها من حرية العقل البشري على البحث والاكتشاف ، وانما هو يقدّم خطوطاً عريضة ... اشارات كبرى ... عن الكون ، ويترك - بعدها - لقوى الادراك البشري أن تمضي في طريق البحث حرة ، نشطة ، طليقة ، لا يصدّها عائق ولا يغلّها قيد، ومن ثم يجيئ هذا النشاط العقلي ، في المنظور الاسلامي ، متوافقاً مع مرتكزات الدين ويقينيّات الايمان ، لا مرتطماً بها ، متعارضاً معها . وذلك على النقيض تماما مما شدته الكتب الدينية المحرّضة ، الاخرى التي رست ، بتفاصيلها غير العلمية ، ومنهجها الخاطئ في اقامة السدود بوجه العقل البشري ، حجراً على نشاطه الحرّ .

إن فاغليري تلخّص هذا المنهج القرآني المرن حينما تذكر أنه « فيما يتصل بخلق الكون فان القرآن على الرغم من إشارته الى الحالة الاصلية ، والى اصل

---

(١) تاريخ الدولة الاسلامية وتشريعها ص ١٧ (المكتب التجاري ، بيروت - ١٩٦٦) .

(٢) دفاع عن الاسلام ص ٥٧ - ٥٨ .

العالم ... لا يقيم أيّما حدّ مهما يكن في وجه قوى العقل البشري ، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد »[1] .

والباحثة الالمانية الس ليختنستادتر تؤكد على النقطة نفسها عندما تشير الى « ان المسلم العصري يعتقد أن كتابة المنزل يسمح له ، بل يوجب عليه ، ان يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيّع المصلحة إو يصدّ عن المعرفة كما انتهت اليها علوم زمنه »[2].

وهناك غير هؤلاء كثيرون ممن تناولا هذه الموضوعات الأساسية في المضمون القرآني ، سواء على مستوى المنهج والمبادئ الأساسية التي يتضمنّها القرآن ازاء العلاقة بالعلم والنشاط العقلي بعامّة ، أو على مستوى الحقائق والجزئيات العلمية التي لم تكتشف أو تتأكد الا في العصر الحديث .

ولن يتسع المجال للمزيد من الشواهد ، وقد تكون النماذج التي تضمّنتها هذه الصفحات كافية في بحث موجز كهذا .

---

(١) دفاع عن الاسلام ص ٦٠ .

(٢) الاسلام والعصر الحديث (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ١٩) .

(٥)

القرآن والكتب الدينية المحرّفة

والذين تحدثوا عن المضمون القرآني لم يفتهم أن يقارنوا بينه وبين مضامين الكتب الدينية (المحرّفة) . ويكفي ها هنا أن نقف عند بعض هذه المقارنات بالنظر لأهميتها في القيمة النهائية للقرآن الكريم ، كما يقررّها ، ويعترف بها غير المسلمين .

على مستوى الموقف من المعطيات العلمية والنشاط العقلي ، يكاد يكون كتاب بوكاي ، مرة اخرى [1]، والذي هو حصيلة خبرة فكرية وميدانية عميقة وخصبة ، في قمة الكتب التي عالجت هذه المسألة ، وأعطت صورة دقيقة موضوعية عن الفارق الحاسم بين القرآن الكريم والكتب الدينية المحرّفة : التوارة والانجيل . وقد عرضنا لهذه المسألة في غير هذا المكان ولذا نكتفي باحالة القارئ اليه [2] . ولكن من الضروري أن نشير هنا الى واحد من استنتاجات بوكاي بهذا الخصوص قبل أن نمضي الى غيره من الباحثين : « لقد قمت - يقول الرجل - اولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نصّ القرآن ومعطيات العلم الحديث . وكنت اعرف ، قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، ان القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتي كانت وجيزة . وبفضل الدراسات الواعية للنصّ العربي استطعت أن احقّق قائمة ادركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث . وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل . أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب الى أبعد من الكتاب الأول ، أي سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين اكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا . وأما بالنسبة للأناجيل ... فاننا نجد نصّ انجيل متيّ يناقض بشكل جليّ انجيل لوقا Luc، وأن هذا الأخير

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) .

(٢) انظر كتاب (الاسلام والوجه الآخر للفكر الغربي) (قيد النشر) .

يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الانسان على الارض » [١] .

المستشرق الامريكي واشنجتون ايرفنج يختصر الأمر بهذه المقارنة المركزة ، والتي يكاد يضع يده - بالفعل - على أهمّ الفروق الحاسمة بين القرآن الكريم والكتب التي سبقته . فلقد « كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الانسان وأساس سلوكه . حتى اذا ظهر المسيح { عليه السلام } اتبع المسيحيون تعاليم الانجيل ، ثم حلّ القرآن مكانهما . فقد كان القرآن اكثر شمولاً من الكتابين السابقين ، كما صحّح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل . حوى القرآن كل شيء ، وحوى جميع القوانين : إذا أنه خاتم الكتب السماوية ... » [٢] .

فها هنا يشير ايرفنج الى التعاقب الزمني للكتب السماوية التي كانت مهمتها أن تأخذ بيد الانسان وفق المرحلة التاريخية التي يجتازها ، والى أن القرآن الكريم كان خاتمة هذه الكتب ولذا تميّز « بالشمول » و « التفضيل » لكي يحقق التغطية العقيدية والتنظيمية لكل زمان ومكان ، هذا الى أنه أخذ على عاتقه مهمة مجابهة « التغيير والتبديل » أي التحريف الذي أصاب التوراة والانجيل ، وإعلان الحرب عليه من اجل العودة بالمعطيات الدينية الى نقائها الاصيل .

وديبورا بوتر تقول بأنه بينما « يقدم لنا - القرآن الكريم - الاحداث بطريقة منطقية ، نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية » وأن القرآن « يتحدث عنها في نسق رائع واسلوب فاقع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة » [٣] .

والأحداث التي تعنيها بوتر تتضمن التاريخي والكوني معاً ... ما يخص

(١) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص ١٣ .

(٢) حياة محمد ص ٧٢ .

(٣) رجال ونساء اسلموا ٨ / ١٠٠ .

الأخرى ، بينما نجد أنها جميعاً يرفض بعضها البعض »[1] . ويفسّر الكونت الفرنسي هنري دي كاستري هذه الظاهرة بأن القرآن الكريم « جاء ليتمّم » الكتب الدينية السابقة ، كما أن « النبي (صلى الله عليه وسلم) خاتم الانبياء والمرسلين »[2] .

وينبثق عن هذا الإقرار القرآني باصول الكتب السماوية السابقة ، تقييم وتقدير بالغين لكل الانبياء السابقين عليهم السلام ، باعتبارهم جميعاً مبعوثين من الله سبحانه لتحقيق كلمته في الأرض . إن هذه المسألة تكاد تكون بديهية من البديهيات التي يتعامل معها المسلمون ، أما بالنسبة لغير المسلمين فانها تكتشف اكتشافاً ، فيدفع اكتشافها هذا بعض الباحثين والمفكرين منهم الى مزيد من التقدير والإجلال لكتاب الله .

درمنغم - على سبيل المثال - يتحدث عن مكانة المسيح عليه السلام في القرآن الكريم . إن له هناك « مقاماً عاليا ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس ، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك اول شخص كلمّه . وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده ... »[3]. ولكن القرآن الكريم اذ يقف هذا الموقف من أحد انبياء الله الكرام ، ويقيمّه هذا التقييم ، لا يهادن لحظة واحدة - وحاشاه - فيما الحقه اتباع المسيح بنبيّهم عليه السلام من « تأليه » وبشخصيته البشرية من تبديل عن سويّتها انحرف بها عن وضعها الصحيح . ودرمنغم يلحظ هذا المبدأ القرآني بوضوح عندما يقول « انه - اي القرآن - يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول ان عيسى { عليه السلام } كلمة الله ، أو روح الله ، القاها على مريم وأنه من البشر ... وهو يذمّ مذهب القائلين بالوهية المسيح { عليه السلام } ومذهب تقديم الخبز الى مريم عبادة ثم اكله وما الى ذلك من مذاهب الالحاد

---

(١) رجال ونساد اسلموا ٧ / ١٩ - ٢٠ .

(٢) الاسلام : خواطر وسوانح ص ٢٢ - ٢٣

(٣) حياة محمد ص ١٣١ - ١٣٢ .

الوقائع والخلق ، ففي هذين المضمارين الزمنيين اللذين تحدث عنهما بوكاي أيضاً وخصص لهما الصفحات الطوال يبدو ألبون بعيداً بين النسق القرآني المحكم وبين فوضى و (اسرائيليات) العهدين القديم والجديد .

عامر داود علي ، الهندي النصراني الذي اعتنق الاسلام يشير - كذلك - الى اشكاليات الكتب الدينية السابقة في ضوء المنظور القرآني المتوحّد « ان دراستي للقرآن الكريم - يقول الرجل - وضّحت أمام ناظري العديد من الاشكالات الفكرية وصحّحت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة » [١] . وهو بهذا يعرض للميزة ذاتها التي تحدث عنها ايرفنج ، وهي أن إحدى الوظائف الأساسية للقرآن الكريم هو تصحيح الانحراف الذي كاد أن يأتي على التوراة والانجيل كما تنزلتا من عند الله .

وثمة هندي نصراني آخر اعتنق الاسلام هو بشير أحمد شاد ، يجري المقارنة نفسها بين القرآن وبين الكتب الدينية الأخرى « فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أيّ نوع في القرآن الكريم ، هذا في الوقت الذي تعاني فيه الكتب السماوية الاخرى في نسختها الحالية من الكثير من التغيير والتبديل » . هذا ، من بين أسباب عدّة ، قادت الرجل الى اعتناق الاسلام [٢] .

وهو يقارن كذلك بين « القرآن الكريم ، الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب الوف مؤلفة من البشر في مختلف بقاع الارض » . وخلص الى القول بأنه « لوحدث لسبب أو آخر أن اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور . وهكذا يحق له أن يتباهى بأنه ظل في مأمن من التحريف لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد . منذ أن نزل به الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم » [٣] . ويشير شاد الى ميزة قرآنية أخرى لا تقل أهمية ، بصدد المفارقة بينه وبين الكتب الدينية الأخرى «فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعترف بكافة الكتب السماوية

---

(١) رجال ونساء اسلموا ص ٧ / ١١٨ .

(٢) نفسه ٧ / ٢٠ .

(٣) نفسه ٧ / ٢٠ .

النصرانية، لا النصرانية الصحيحة ، ولا يسع النصراني الا ان يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم » [1] .

هنري سيرويا ، المستشرق الفرنسي يؤكد الظاهرة نفسها « فمحمّد { صلى الله عليه وسلم } مع كونه مبعوثا ورسولاً من لدن الله ، لم يتظاهر بانكار دعوات كل من موسى وعيسى { عليهما السلام } . كل مجهوده انحصر في تنقيتهما على لسان القرآن ، الذي وضع في العام الاول مهاجمة مبدأ الثلاثية منبهاً الى أن عيسى { عليه السلام } ليس سوى رجل ابن مريم وليس ابن الله ، والقول بأن الله له ولد (سبحانه) هذا شرك كبير تنشقّ له السماء وتنفتح له الأرض وتنسحق له الجبال . أما روح القدس فما هو الا بمثابة ملاك مثل جبريل، دوره هو أن ينقل الى عيسى ومحمد { عليهما السلام } الدعوة المقدسة ، أما مريم فهي مريم العذراء وليست بأم الله » [2]. وسيرويا يعرف القرآن الكريم بأنه « ثورة عقيدية » وأن هذه الثورة « لا تعترف ، لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة ، حيث لم يشعر الاسلام يوما بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي » [3]. ذلك الذي يضع المسلم وجها لوجه قبالة الله سبحانه ، حيث لا يوجد ايما « فراغ بين الخالق والخلق البشري » هذا الفراغ الذي ملأه اليهود والنصارى « بالواسطة » !

وقد يتبادر الى الذهن ان اعتراف القرآن الكريم باصول الكتب الدينية السابقة وتطابق بعض معطياته مع بعض ما ورد فيها ، وتقييمه المؤكد باستمرار لأنبيائها عليهم السلام . انما يضع كتاب الله بمنزل « المستمدّ » من الكتب والأديان السابقة ، المعوّل عليها ، وبالتالي فهو لا يعدو أن يكون امتداداً تنقيحياً لها فحسب .

ان السير هاملتون كُب ، كبير مستشرقي الانكليز ، يردّ هذه الشبهة عندما

---

(١) حياة محمد ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) فلسفة الفكر الاسلامي ص ٣٢ - ٣٣ (ترجمة محمد ابراهيم . سلسلة الثقافة الاسلامية عدد ٣٢ ، دار الثقافة العربية ، القاهرة - ١٩٦١) .

(٣) نفسه ص ٣٢ .

ويمضي الباحث الانكليزي الذي انتمى للاسلام : عبدالله كويليام ، لكي يقدّم المزيد من الفروق بين القرآن والكتب السماوية التي سبقته ، فينتقد بمرارة ما تضمنته هذه الكتب « من قصص وخرافات » ومن « اختباط عظيم في الأمور التعبّدية » ، وما تتسّم به من مجافاتها للعقل و « انعدام تأثيرها » ، بل إنه يذهب الى القول « بأن الكتب المسيحية المقدسة ليس فيها شيء من الاصول الدينية » [1] ، ويشير - بالمقابل - الى ان « من ضمن محاسن القرآن العديدة أمرين واضحين جداً : احدهما علامة الخشوع والوقار التي تشاهد دائماً على المسلمين عندما يتكلمون عن المولى ويشيرون اليه ... والثاني خلوه من الخرافات وذكر العيوب والسيئات » [2] . كما أنه يقارن بين مبدأ مسؤولية الذاتية ويعلقها على فعل الأخرين وبين المبدأ القرآني الذي يؤكد هذه المسؤولية حيث يكون مصير الانسان ختماً على افعاله وممارساته ، وحيث يكون المؤمن مسؤولاً عن اختياره .

أحمد سوسة ، اليهودي العراقي الذي اعتنق الاسلام يقف عند مسألة « قوة التأثير » أو « انعدامه » تلك التي أشار اليها كويليام فيرى « في تلاوة آيات القرآن المجيد تأثيراً بالغاً على مشاعر المرء » حيث « يغمره الاحساس الفياض باتصاله الروحاني وتجتذبه مهابة الإله وجلاله فيقرّ بكل خشوع بعجزه وضعفه أمام كلام ربه العظيم » . وهو يقارن هذا بالتأثير الذي يكاد أن يكون منعدماً «لمبادئ العقائد الأخرى وكتبها » فيجد البون شاسعاً [3] .

يؤكد سوسه على فارق آخر سبق وأن وقف عنده عدد من الباحثين الذين مرّوا بنا : سلامة النصّ القرآني من التحوير والتبديل ، بينما نجدها قد حاقا بمصاحف اليهود « الأمر الذي اجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي بنتيجة الدرس والتنقيب » ، وهي النتيجة التي تجيء « تأييداً علميا للاقوال الربانية

---

(١) العقيدة الاسلامية ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) نفسه ١ / ٨٦ .

(٣) في طريقي الى الاسلام ١ / ١٨٣ - ١٨٤ .

يؤكد بأنه « مهما كان استمداد الاسلام من الأديان التي سبقته فذلك لا يغيرّ هذه الحقيقة ايضاً وهي : ان المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها الى الناس تشمل بناءً دينياً جديداً متميزا » [1] .

وهكذا فان القرآن الكريم يقيم « بناءً متميزاً » ، وهذا التميزّ هو الذي تلمحه فيما سبق وأن أشرنا اليه : الهجوم الصارم الذي لا يساوم ولا يلين ازاء كل ما لحق بالكتب السابقة من تبديل وتحريف .

وما يلحظه كَب تلحظه كذلك الباحثه الالمانية الدكتوره الس ليختستادتر من أنه اذا كانت احدى مزايا القرآن ، في عقيدة المسلم « انه متمم للكتب السماوية » وأنه « يوافقها في اصول الايمان » الاّ أنه في الوقت نفسه « يختلف عنها في صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضّي عهدها ، ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها . وكل ما يراد به الدوام ينبغي أن يوافق كل جيل ويصلح لكل اوان » [2]. فالقرآن - اذن - فضلاً عن بنيته المتميّزة ، فانه الرسالة المفتوحة الدائمة لكل زمان ومكان ... انها تتجاوز نسبيات الأمة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، لكي تمضي متعاملة مع كل الأوضاع والاحوال . وليس الأمر على هذه الصفة الديناميكية في الكتب الدينية السابقة .

وكَب يلحظ - كذلك - واحدة من الخصائص الأساسية التي تميز القرآن الكريم عن الكتب الدينية السابقة : انه التوازي الفذّ بين العقل والروح واستثارتهما معاً لتجاوز المنظور المادي الى العمق ، صعوداً الى أعلى « فليس غريباً أن لا يجد المسلم في أي كتاب مقدس آخر شيئاً ... من هذه القوة على تأييد ملكة الرؤى الحدسية وتقويتها ، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقفا من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة ... » [3] .

---

(١) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) الاسلام والعصر الحديث (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ١٩ ٩ .

(٣) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٥٧ .

التي اوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرنا على لسان النبي العربي الكريم ، صلى الله عليه وسلم » [1] . كما أنه يقف عند مسألة « هيمنة القرآن الكريم على ما بين يديه من المتاب » ، ويرى أنها تمارس وظيفتين خطيرتين : واولاهما حماية التعاليم الالهية الاصلية والحفاظ عليها ، وثانيتهما كشف الدخيل الزائف الذي تعرّضت له هذه التعاليم عبر سلسلة من التحريفات حاقت بالكتب الدينية السابقة « فيكون - القرآن الكريم - بهذا البيان والايضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ اياها من التلاعب »[2] .

أما نصري سلهب ، النصراني اللبناني ، فأنه يقف طويلاً عند معطيات القرآن الكريم عن النصرانية كتابا ونبيّا ، محاولاً أن يستلهم منها روحا جديدا من الألفة والودّ والوئام قد تخفف بعض الشيء من غلواء الحقد والكراهية التي رمي بها الدين الذي جاء به محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) والكتاب الذي انزل عليه : إن الآية التي استطيب ذكرها - يقول سلهب - هي التي تنبع سماحاً إذا تقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن * الا الذين ظلموا منهم * وقولوا أمنا بالذي أنزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) [3] . ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمن به لأنه كلام الله اليهم . انها لعبارات يجدر بنا جميعاً مسيحيين ومسلمين ، أن نردّدها كل يوم ، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء، لأنه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله : فحيث تكون المحبة يكون الله . والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المنزلة واحدة ، وأن اصلها عند الله ، وهذا الأصل يدعى حينا (أم الكتاب) وحينا آخر (اللوح المحفوظ) أو (الامام المبين) ... » [4] .

---

(١) في طريقي الى الاسلام ١ / ٨٦ .

(٢) نفسه ١ / ٨٧ .

(٣) سورة العنكبوت ، آية ٤٦ .

(٤) لقاء المسيحية والاسلام ص ٢٢ (دار الكتاب العربي ، بيروت - ١٩٧٠) .

وعن معطيات القرآن الكريم بصدد المسيح عليه السلام وأمه الصّديقة يقول سلهب : « بوسعنا أن نقول ان ما ورد في القرآن عن المسيح { عليه السلام } رائع وجميل ، فقصّة الميلاد بلغت أوج الروعة ، ومشهد البشارة تجسيد للجمال، وأوصاف المسيح والقابه وقدرته ومعجزاته تذكرنا بالانجيل . فسبحان الله الذي يجعل أية للناس ورحمة منه . واذا كان القرآن قد بلغ اوج الروعة والجمال بما ورد فيه عن المسيح ، فان ما اورده عن مريم جميل ورائع أيضاً ... وحسبنا ان نذكر الأية الحادية والأربعين من سورة آل عمران : (واذا قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين) لندرك أن القرآن يرفع مقام مريم الى منزلة لم تبلغها أية امرأه اخرى على الاطلاق . واجمل من هذا أن يرد في القرآن آية تعتبر صدى صريحاً لمعتقد مسيحي لم تعلنه الكنيسة الأ في القرن التاسع عشر ، وهو معتقد (الحَبل بلا دنس) أي عصمة مريم العذراء من الخطيئة الاصلية ... وما هو رائع أيضاً أن تكون مريم قد تكلمت وهي طفلة ، وأن يكون الله { سبحانه } قد خصّها بما لم يخص به سواها ... وهكذا نتبين أن القرآن يرى في مريم أم المسيح آية في اصطفائها وفي ميلادها وفي طفولتها وحداثتها ، وفي حبلها البتولي بالمسيح وفي حياتها كلها وطهارتها وقداستها وفي شخصيتها . فهي مع ابنها آية للعالمين . والاجمل من هذا كله أن الله سبحانه } { قدّر } اختيارها للمعجزة الكبرى منذ اول الخليقة فاصطفى أجدادها وآبائها من آدم الى عمران ... »[1].

ثم يخلص الى الاستنتاج التالي : « اذا كان المسيح { عليه السلام } قد أوصانا بأن نحبَّ مبغضينا ونبارك لاعنينا ، فما تراها تكون وصيته بالنسبة لاولئك الذين جاء قرأنهم يكرم المسيحية والمسيح { عليه السلام } ويمجّد العذراء مريم كما لم يمجدها كتاب على الاطلاق ؟ » [2] .

---

(١) لقاء المسيحية والاسلام ص ٣٨ - ٤١ (دار الكتاب العربي ، بيروت - ١٩٧٠) .

(٢) نفسه ص ٥٦ .

وإذا كان معظم المسيحيين يجهلون ، كما يؤكد سلهب « ما ينطوي عليه القرآن من ثروة روحية واخلاقية عظيمة » [1] ، ربما بسبب من التعتيم الذي مارسته كتبهم الدينية والجدار الذي أقامه رجالهم بينهم وبين القرآن ، واذا كانوا لذلك يتخبطون في الظلمات ، فان ابراهيم خليل احمد ، القبطي المصري الذي اعتنق الاسلام ، ينادي كلاً منهم باخلاص أن يتحرك لكي يتجاوز دائرة الظلمة ويعاين كتاب الله الذي يقود الى الصراط « ففي هذا الظلام الدامس ، ايها المسيحي يتألق القرآن الكريم ليكشف لك عن الله عز وجل ... » [2] .



(١) في خطى محمد ص ٣٥١ .

(٢) محمد في التوراة والانجيل والقرآن ص ١٧٢ .

(٦)

التأثير

والآن ، فاننا سنحاول ، قبل أن نمضي الى نهاية بحثنا هذا ، ان نؤشّر على بعض ما قالوه عن تأثير القرآن الكريم ، وهو - بالتأكيد - تأثر واسع متشعّب يمتد بالعمق والطول والعرض ، ويغطي كافة مساحات الحياة الانسانية إما على مستوى الافراد أو على مستوى الجماعات والشعوب والامم والبشرية كافة ، ويمتد لكي يتناول قضايا الروح والجسد ، والنفس والمجتمع ، والعبادة والسياسة ، والفكر والعمل فيؤثّر فيها ويعيد صياغتها كما يريد لها الله ورسوله أن تكون .

انهم يتحدثون عن التأثير القرآني عمقياً باتجاه النفس البشرية وأفقياً باتجاه العالم ، وبين هذين القطبين اللذين كهربتهما كلمات الله ، تجولّ الباحثون من خارج دائرة الاسلام ، فقرأوا الكثير وكتبوا الكثير .

ومن أجل التوضيح ، أيضاً ، نستطيع أن ندرج ما قيل في معطيات التأثير القرآني في التيارات الثلاثة التالية التي يتضمّن كل منها حشوداً من المفردات : التأثير النفسي الفردي ، التأثير الاجتماعي السياسي ، والتأثير الثقافي - الحضاري .

لنبدأ بالتأثير الاول ذي الطابع العمقي الذي يتناول النفس البشرية ، فهو - في الحق - القاعدة الأساسية وزاوية الانطلاق ، اذ لانستطيع ان نبني أو نتصورّ عالماً مؤمناً متوحّداً دون أفراد مؤمنين متوحّدين . وبمجرد نظرة سريعة على مسيرة الدعوة الاسلامية في عصر الرسالة تبين للمرء كيف كان العصر الملكي كله تأكيداً على هذه المسألة : بناء الانسان المؤمن الجديد الذي سيأخذ على عاتقه مهمة إقامة الدولة الراشدة ، وتمثّل تشريعها الالهي ، والتحرك لتغيير العالم سياسياً وحضارياً ، وتشييد المستقبل الاسلامي الجديد .

ولقد كان كتاب الله ، جنباً الى جنب مع تعاليم رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) هما المعلم والمرشد والهادي ، ولقد أحدث كلاهما من التأثير ما اتاح لهذا البرنامج التحقّق المذهل ، وكانت البداية هي الانسان .

والباحثون من غير المسلمين ، أو من أولئك الذين انتموا بفعل هذا التأثير العجيب نفسه ، يقولون الكثير عن هذه الظاهرة ، وسنكتفي هاهنا بنماذج فحسب مما قالوه وكتبوه . ولنبدأ بالمفكر ورجل القانون الفرنسي : مارسيل بوازار ، انه يختصر التأثير بكلمات « فالقرآن يخاطب الانسان بكلّيته : اعمق مشاعره - حسنة كانت أم سيّدة - وعمله اليومي من منظور قد نستطيع نسبته الى (علم النفس التطبيقي) ... »[1] .

وهذا حقّ ، فان الخطاب القرآني ، ربما على خلاف سائر الخطابات الدينية والوضعية الأخرى ، يتميز بالشمولية ، فيتوجه الى الانسان بكليته : عقلاً وروحا وجسداً وغرائز وعواطف ووجدانا ، ليس هذا فحسب ، بل انه تعامل مع الانسان تعاملاً نفسياً تطبيقياً ، وليس كذلك الذي مارسه فلاسفة ومفكرون ورجال كهنوت ، وهم معلقون في سماوات المثل والاحلام ، حيث يعرف خداع الافكار والكلمات أن يصيب الانسان بازدواجية بين الواقع والمثال ما انزل الله، ولا العلم ، بها من سلطان .

ان كلمات الله سبحانه ، بالعكس تماما ، توحّد ولا تفرّق ، تشدّ ولا تشتّت وتمنح الشخصية البشرية بالتالي ، توحّدها وسويّتها : « فالتنزيل - كما يقول بوازار أيضاً - يوفرّ للمؤمنين رباطاً روحياً ونفسانياً ... ذا جوهر ديني »[2] .

وهذا التأثير النفسي البنائي لا يقتصر على عصر دون عصر ، ولا على بيئة دون أخرى ، إنه جاهز للعمل في أية لحظة ، وفي أي مكان « ولا يكفي خط مايتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في (الذهنية الاسلامية) المعاصرة ، فهو ما يزال مصدر الالهام الفردي والجماعي الرئيسي ، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذهم الأخير »[3] .

دينيه ، يؤكد هذا الاستمرارية التأثيرية في الزمان والمكان . وااننا لنستطيع « أن نسمّي معجزة الأيات القرأنية : (المعجزة الخالدة) ، وذلك أن تأثيره

---

(١) انسانية الاسلام ص ١٢٧ .

(٢) نفسه ص ٢٢٩ .

(٣) نفسه ص ٢٤٣ .

دائم ومفعولها مستمر ، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان ان يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله ... » [١] . وهو - اي دينيه - يرجع في الزمن الى الوراء ، الى البدايات الاولى ، فيحدثنا ، كما فعل كثيرون غيره ، عن هذا التأثير القرآني في النفس البشرية ، حتى وهي تقف في مواقع الخصومة والكراهية والعناد ، لقد « أحسّ المشركون ، في دخيلة نفوسهم ، ان قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم { صلى الله عليه وسلم } ، وكلهم كثيراً ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الالفاظ الأخاذة التي الهمها ايمان سماوي ، ولم يمنعهم عن الاسلام الأ قوة حبّهم لأعراض الدنيا » [٢] .

درمنغم يقف ، أيضاً ، عند الظاهرة نفسها : استمرارية التأثير القرآني وقوّته ، فيشير الى « أن اسلوب - القرآن - المعجز وقوة أبحاثه ، لا تزال الى يومنا هذا تشير ساكن من يتلونه ، ولو لم يكونوا من الاتقياء العابدين » ويتحدث عن (الهزّة الروحية) التي تحدثها آياته ثم يتساءل قائلاً : « لاريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن شر نفوذه وعظيم نجاحه » [٣] .

فاغليري الايطالية تلحظ كيف « أن هذا الكتاب الذي يتلى كلّ يوم في طول العالم الاسلامي وعرضه ، لا يوقع في نفس المؤمن ايّما حسّ بالملل ، على العكس ، إن من طريق التلاوة المكرورة يحبّب نفسه الى المؤمنين اكثر فاكثر يوما بعد يوم . انه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي اليه حسّاً عميقاً من المهابة والخشية . ان في امكان المرء أن يستظهره في غير عسر ، حتى أننا لنجد اليوم ، على الرغم من انحسار موجة الايمان ، الافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب . وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ اكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في اوربا كلّها » [٤] .

---

(١) محمد رسول الله ص ١١٨ .

(٢) نفسه ص ١٠٦ .

(٣) حياة محمد ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٤) دفاع عن الاسلام ص ٩٥ .

سدني فيشر الامريكي يصف القرآن بأنه « صوت حي يروع فؤاد العربي وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ... » [1] .

كُب ، المستشرق البريطاني يرى « اننا نخطئ خطأ فاحشاً اذا اقتصرنا على النظر الى هذه العقيدة { الاسلامية } نظرتنا لمذهب لاهوتي اتقن بشكل وراثي من جبل الى جبل منذ الف وثلاثمائة سنة . انها على العكس من ذلك ، يقين وايمان حي يتجدّد ويتأكد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وافكارهم ، ولدى العربي بشكل خاص ، حين يدرس النصّ المقدس » وهو يصف موسيقى القرآن بأنها « { تمارس } دوراً لا يمكن تحديده ، لأنها تعدّ بسحرها افكار الشخص الذي يصغي الى القرآن لتلقّي تعاليمه » [2]. ويصف القرآن نفسه بأنه « المنبع الذي يود اليه المسلم بين الحين والحين لينعش رؤاه الروحية » [3].

وآخرون من المهتمين بالقرآن الكريم تحدثوا عن تجاربهم (الذاتية) عما فعله كتاب الله في نفوسهم وهم يرحلون في سوره وآياته وكلماته ... عن قدرته المذهلة على منحهم اليقين بأن الاسلام ، وهذا هو كتابه ومنطلقه ، هو الدين الحقّ الذي يتحتّم الانتماء اليه .

بيكارد ، المؤلف والأديب الانكليزي المعروف يقول : « ابتعت نسخة من ترجمة سافاري (savaroy) الفرنسية لمعاني القرآن وهي اغلى ما أملك ، فلقيت من مطالعتها اعظم متعة وابتهجت بها كثيرا حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق عليّ بنوره المبارك »[4] .

هوني ، الانكليزية التي شغفتها الفلسفة حبًا فأتمت دراستها فيها ، تحدّثنا عن تجربتها الذاتية مع القرآن الكريم فتقول : « لن استطيع مهما حاولت ، أن أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي ، فلم اكد انتهي من قراءة السورة

---

(١) الشرق الاوسط في العصر الاسلامي (عن العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ٥٤) .

(٢) دراسات في حضارة الاسلام ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) نفسه ص ٢٦٠ .

(٤) رجال ونساء اسلموا ٢ / ٨٦ (الطبعة الثالثة) .

الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون ، فكانت هذه اولّ صلاة لي في الاسلام » [١] .

ليوبولد ڤايس ، المفكر النمساوي المعرف ، يحدثنا عن تجربته وزوجته مع القرآن قائلاً « اصبحت إليسا (زوجتي) ، شأني أنا ، اكثر تأثراً مع الوقت بذلك الالتئام الباطني بين تعاليم { القرآن } الاخلاقية وتوجيهاته العملية . ان الله { سبحانه } بمقتضى القرآن ، لم يطلب خضوعاً أعمى من جانب الانسان بل خاطب عقله : انه لا يقف بعيداً عن مصير انسان بل انه اقرب اليك من حبل الوريد . انه لم يرسم أي خط فاصل بين الايمان والسلوك الاجتماعي » [٢] .

كات ستيفنز ، المغنيّ الأمريكي الشهير ، يحكي تجربته هو الآخر مع القرآن : « في تلك الفترة من حياتي بدا لي وكأنني فعلت كل شيء وحققت لنفسي النجاح والشهرة والمال والنساء ... كل شيء ، ولكن كنت مثل القرد أقفز من شجرة الى أخرى ولم اكن قانعاً أبداً ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكيد لكل شيء بداخلي كنت اراه حقا ، وكان الوضع مثل مواجهة شخصيتي الحقيقية»[٣] .

وأحمد سوسة ، اليهودي العراقي ، يقصّ علينا في سيرته ، وبكلمات قلائل، كيف مضى به القرآن الكريم إلى تغيير دم الأباء والأجداد : « يرجع ميلي الى الاسلام ... حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى ... فولعت به ولعاً شديدا ... وكنت اطرب لتلاوة آياته ... » [٤] . ويواصل الرجل حديثه عن التأثير القرآني « أنا لا أظن أن ثمة شيئاً يؤثر في المرء الذي ادرك حقيقة الديانة الاسلامية وروحيتها بقدر تأثير تلاوة آيات القرآن المجيد على مشاعره ، فيغمره الاحساس الفيّاض باتصاله الروحاني وتجتذبه مهابة الإله ، جلّ جلاله ، فيقّر بكل خشوع بعجزه وضعفه أمام كلام ربّه العظيم ... ومالنا في هذا الصدد إلاّ أن نتأمّل الاوضاع في كنائس الغرب ... ليتسنّى لنا المقارنة بين الروحية

---

(١) رجال ونساء اسلموا ١ / ٥٩ - ٦٠ (الطبعة الثانية) .

(٢) الطريق الى مكة ص ٣١٨ .

(٣) رجال ونساء اسلموا ١٠ / ١٠٣ .

(٤) في طريقي الى الاسلام ١ / ٥١ .

الاسلامية ونفوذها على المشاعر في فرقانها المجيد وبين مبادئ العقائد الأخرى وكتبها »[1] .

حتى اذا ما صعّدنا باتجاه المجتمع الذي شكّله القرآن ، وهو لا يزال قديراً على تشكيله في كل لحظة وحاولنا أن نتابع طبيعة التأثير القرآني في البنية الاجتماعية وبعلاتها السياسية والعامة التي تنظمها وتقودها ، فاننا سنجدها هنا أيضاً أمراً عجبا .

إن بوازار الذي يكاد يكون من اكثر المعنيين بدراسة الطبيعة الايديولوجية للمجتمع الاسلامي ، وأبعاد علاقته لعامة ، يقف طويلاً عند هذه المسألة ، فيجد كيف أن القرآن الكريم « الذي تأكدّ أنه مرشد روحي ونظام خلقي وقانون دنيوي معاً » قدر منذ البدايات الأولى على أن « يشكّل حوه كيانا سياسياً واعياً . وفرضت جماعة المؤمنين نفسها بنياناً دقيقاً ومنطقيا ، لكل مسلم فيه مكانه ومشاركته الحقيقية ... »[2]. كما يلحظ بوازار جيدا كيف أن القرآن الكريم « برفضه الفصل بين الروحي والزمني » أثبت أنه « دين ونظام اجتماعي ... ومن البديهي أن القرأن هو السبيل الذي ظن امكان استخدامه فيه قد طبعا المجتمع بعمق »[3] .

وهكذا فان التأثير الاجتماعي - السياسي لكتاب الله قد تمثّل - كما يؤكد بوازار - بتشكيل المجتمع ويطبع فاعلياته ، بعمق ، بالاهداف والخصائص والقيم الاسلامية .

ويمضي بوازار أبعد من ذلك، فيجد الفارق كبيراً في هذا المجال بين التأثير القرآني وبين سائر المحاولات السياسية والايديولوجية الوضعية ذلك «أن الروح القرآني يخلق مناخ عيش ينتهي به الأمر الى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية باكثر مما تفترض التصريفات

(١) في طريقي الى الاسلام ١ / ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) انسانية الاسلام ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٣) نفسه ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

السياسية والطوابع الايديولوجية التي تسند الى الدول » [١] . وهذا حق ، فان القرآن الكريم يعيد صياغة الانسان المؤمن عقيديا ، ويبذر في نفسه من ضمانات الالتزام ويقظة الضمير والاحساس بالمسؤولية ، ما يمكّن التجربة الاجتماعية - السياسية - التي تقوم على اكتاق الجماعة المؤمنة من النجاح ليس هذا فحسب ، بل ان التأثير القرآني هاهنا يمتد أفقيا كما هو واضح من عبارة بوازار، لكي يحقّق التوافق والتناغم والتماسك والانسجام في نسيج الوحدة الاجتماعية فيجعلها أقدر على الفعل والانجاز . ذلك هو المناخ القرآني ، اذا استعملنا مفردات بوازار ، والذي يعيشه المرء ، ويراه ويلمسه عبر مساحات واسعة من تاريخ التجربة الاجتماعية في الاسلام ... ونحن نستطيع أن نلمح المعنى نفسه في بارة أخرى لبوازار سبق وأن مرّت بنا في مقطع آخر حيث يشير الى أن القرآن الكريم لا يوفّر للمؤمنين رباطاً روحياً ونفسانياً وقانونياً ذا جوهر ديني » .

وثمة عنصر آخر من عناصر الفاعلية القرآنية في المجتمع ، ذلك هو ما تتميّز به تعاليمه السلوكية من تحدي ووضوح ، على خلاف العديد من المذاهب والاديان التي لا تتحدّد فيها القيم السلوكية واضحة منظوره فاعلة في أرض الواقع ، وانما تسبح في فضاء واسع مترع بالغموض والضباب فتفقد قدرتها بالتلي على التمثّل والتحقّق . ان القرآن « حجر ازاوية في الاخلاقية الاسلامية، لا يصف الانسان - كما يلحظ بوازار - بمفهومه الماورائي لأن الروح من أمر الله وحده ، ولكنه يأمره بسلوك ينبغي اتباعه »[٢] .

ومن عجب ان الاسلام الذي يُعد من اكثر المذاهب ، بل اكثرها فعلاً ، انبثاقاً عن الغيب ، واستناداً اليه ، يملك قدرة فذة كهذه على الحركه في قلب الواقع المنظور ، في ضوء مبادئ سلوك عملي محدد ينبغي اتباعه كتعبير عن الالتزام الديني الذي يتجاوز المنظور الى ما وراءه ... الى الغيب . وهذه

---

(١) انسانية الاسلام ص ٣٤٣ .

(٢) نفسه ص ١٤٢ .

المعادلة التي جنحت وتأرجحت في معظم المذاهب والاديان الوضعية ، نجدها في الاسلام تأخذ صفة التوازن المدهش ، اسوة بما يحدث في كافة التوازنات التي حققها هذا الدين . ان هذه الخصيصة التي يلمحها بوازار لتكشف عن واحدة من أهم الخصائص الاسلامية اهمية وتفرّدا .

والقرآن الذي صنع مجتمعاً كهذا عبر مراحل تاريخية متعاقبة ، قادر على أن يصنعه في القرن العشرين والقرن الخامس والعشرين ذلك أن « الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث »[1] .

كَب ، أيضاً ، يقف بعض الوقت عند اظاهرة التأثير القرآني في المجال الاجتماعي – السياسي ، فيلحظ « أن جمهور الجماعة الاسلامية كان يتألف من شعوب أحدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية أثراً اقوىي وأسرع من كل أثر خلفه أي قدر من الجدل العقلي أو من حذقة وبراعته »[2] . هذه الممارسة « التي يمثل القرآن أقوى شاهد عليها »[3]، كما يلحظ كيف أن القران الكريم كان « يعيد توجيه الحياة الدينية اذ ينصب أمامها اهدافاً جديدة »[4] ، وهو عندما يتحدث عن التحديات التي جابهها المجتمع الاسلامي في فترات تكوّنه المبكر ازاء الجماعات العديدة والحضارات المتباينة التي احتوتها الفتوحات الاسلامية . يشير الى فصل للمفكر ترتون في كتابه (علم الكلام الاسلامي : Muslim Theology) يؤكد فيه كيف أن القرآن هو الذي مكّن المجتمع الاسلامي من الصمود بمواجهة هذه التحدّيات وحماية ذاته وبلورتها في مجرى الصراع الذي كان يحيط بالحياة والعقل الاسلامي يومها . فلقد طرح ترتون في فصله ذاك « صورة فذّة عن الافكار التي تنفسّت عندما دخل الاسلام في صخب العالم الهلنستي ، ووجد نفسه محفوفاً بجوّ من الجدل اللاهوتي ، وهي افكار ذات اختلاط وتكثّر ، واحياناً ذات سخف يعزّ تصديقه .

---

(١) انسانية الاسلام ص ٣٤٥ .

(٢) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٥٥ .

(٣) نفسه ص ٢٦٠ .

(٤) نفسه ص ٢٦٠ .

فكان السبيل الوحد الذي يحفظ على المرء توازنه عندئذ ويبقي لديه على نعمة الايمان ، أن يعود الى القرآن ويرفض كل بناء عقلي ... وربما لم يتضح لنا وضوحاً حاسماً مبلغ ما استطاع القرآن أن يؤديه في امساك العقل الاسلامي وتوجيهه عندئذ إلاّ إذا لحظنا أن هيئة الجماعة في تلك الظروف العصيبة لم تهن ولن تتزعزع »[1] .

وكَب (*) أو ترتون عندما يستخدمان عبارة « رفض البناء العقلي » لا يعنيان بطبيعة الحال رفض المجتمع الاسلامي للمعطيات العقلية أو وقوفه على الطرف النقيض منها ، فهذا لا يقول به رجل يحترم عقله وهو يرى ذلك التأكيد والألحاح العجيبين في كتاب الله وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، على تقييم العقل وحثّه واحترام معطياته . إنما القصد هو ما أفرزه العقل الوضعي يونانياً كان أم رومانياً أم هلينياً أن هنديا أم فارسيا أم محليا ، وما طرحه كذلك العقل الديني مع بداهات الايمان الاسلامي ، كان التسليم بمقولات الخصوم تنازلاً عن مطالب الايمان ، وتفككا يقود المجتمع الاسلامي الى الضياع . والذي حدث هو العكس فان القرآن الكريم قاد هذا المجتمع في تلك الظروف العصيبة الى المزيد من التوحّد « فلم تهن هيئته ولم تتزعزع » . وثمة أيضاً ما يجب أن نتحفظ عليه ههنا ، فان رفض معطيات الخصم لم يكن عملاً عشوائياً أو أصمّ يستهدف الانغلاق الكامل على هذه المعطيات . ذلك أن الذي حدث هو عكس هذا تماما ، وبمجرد إلقاء نظرة اولية على صيرورة الحضارة الاسلامية يتبيّن

---

(١) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(*) انظر عبارته التي سبق وأن مرّت بنا والتي تجد من الضروري استعادتها هنا لإزالة أي التباس قد يتوهّمه قارئ ما بصدد تأكيد كَب على الحدس ، واعتباره نقيضاً للعقل ، أو نشاطاً مستقلاً يعمل بمعزل عن العقل ... أما العبارة التي تردّ هذا الوهم فهي تلك التي يقول فيها « ليس غريباً أن لا يجد المسلم في أي كتاب مقدّس آخر شيئاً من هذه القوّة على تأييد ملكة الرؤى الحدسية وتقويتها ، والطفرة الصاعدة للعقل والروح كي يقفا من خلال تجربة محسوسة على الواقع الكامن وراء الظواهر الزائلة في عالم المادة » (دراسات في حضارة الاسلام ص

لكل ذي عينين صدق هذا الذي نقوله ، انما كان هناك موقف يتميز بأقصى درجات الالتزام العقدي والمرونة العقلية في الوقت نفسه ، ومن خلالها أخذ المجتمع الاسلامي قيماً ومعطيات ثقافية ، ورفض أخرى ، فاستطاع أن يطوّر إمكاناته الحضارية وحمى في الوقت نفسه ذاته الاجتماعية من التفكّك والتغرّب والضياع .

لوبون يتحدث عن عمق التأثير القرآني في الجماعات والأمم التي دانت بالاسلام « ... إن اصول الاخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها ، وإن اخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحوّل الأزمان والعروق مثل تحوّل الأمم الخاضعة لدين عيسى { عليه السلام } ... إن اهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه ، فالديانات التي لها ما للاسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً ، وقد لا تجد ديناً اتّفق له ما اتّفق للاسلام من الأثر الدائم »[1]. ثم يخلص لوبون الى القول بأن «القرآن هو قطب الحياة في الشرق، وهو ما نرى أثره في ادقّ شؤون الحياة»[2].

ديورانت يلحظ شمولية التأثير القرآني ودوره البالغ في هدم وإزالة الكثير من القيم السائدة في المجتمع وإقامة قيم بديلة عنها . فلقد « ظلّ - القرآن - أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرة { المسلمين } يستثير خيالهم ، ويشكل اخلاقهم ، يشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد واقلّها غموضا وأبعدها عن التقيّد بالمراسم والطقوس ، واكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له اكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضّهم على اتباع القواعد الصحّية ، وحرّر عقولهم من كثير من الخرافات والاوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسّن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الاذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين ... درجة من

(١) حضارة العرب ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٢) نفسه .

الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظر في أيّة بقعة من باقع العالم يسكنها الرجل الأبيض ... » [1].

كويليام يؤكد أن لالتزام بكتاب الله هو السبيل الوحيد لنجاح المجتمع ونجاته من الخسران والدمار ، فالقرآن « نظام ربّاني قويم ، ووضع الهي قديم، فاتّباعه في كل زمان ، والعمل باحكامه في كل مكان مقرون به النجاح ضامن للنجاة ... ومخالفة ما جاء به هي الخسران والسبب الباعث للذل والهوان »[2] .

ريسلر يلحظ « كيف ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم » وكيف أنه « لم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات أو تبديلات بعيدة الغور » [3] . ويبدو أن الباحث الفرنسي لم يشأ أن يلتفت او يشير الي ما فعله وتفعله قوى الاستعمار والاستعمار الجديد في غزوها الثقافي والعقائدي المدمّر ، لفك هذا الارتباط بين القرآن والمجتمعات الاسلامية ، واقتلاعه من الجذور ، حيث تمكنت من النجاح في بعض المساحات ، بفضل ادواتها المساعدة ، وأخفقت في جوانب أخرى .

أما سيديّو فانه يؤكد على ما فعله القرآن في مجال شدّ أواصر الشعوب التي انتمت للاسلام ، بمنحها للغة المشتركة والمشاعر الواحدة « فمّما يجدر ذكره أن يكون القرآن ، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب في أسيا حتى الهند ، وفي افريقيا حتى السودان ، كتاباً يفهمه الجميع ، وأن يربط هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابطة اللغة والمشاعر ...» [4].

وأما سلهب فانه يتجاوز دائرة المجتمعات الاسلامية فيرى « أن القرآن لا يخاطب المسلمين فحسب ، ولا يعنى بشؤونهم فحسب ، اما هو يخاطب البشر على اطلاقهم ، ويعنى بشؤونهم جميعا ... فلو أقبل عليه البشر وعبّوا من

---

(١) قصة الحضارة ، جزء ١٣ ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢) أحسن الأجوبة ص ٣٠ .

(٣) الحضارة العربية ص ٧٥ .

(٤) تاريخ العرب العالم ص ٤٥٨ .

احكامه وتوصياته فارتووا منها وعملوا بها ، لكانت البشرية في وضع افضل بكثير مما هي عليه » [1] .

بل اننا اذا رجعنا الى البدايات الاولى ... اللحظات التاريخية التي انطلق المسلمون فيها لكي يفتحوا الأرض ويقيموا دولتهم العالمية ومجتمعهم الانساني، لوجدنا كتاب الله يقف هناك يدفع اتباعه ، يوجّهم الى الأهداف ، ويمنحهم القوة على الفعل والمسارعة والانجاز .

كوبولد : « القرآن هو الذي دفع العرب الي فتح العالم ، ومكّنهم من انساء امبراطورية فاقت امبراطورية الاسكندر الكبير ، والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا وحضارة ... »[2]، « هذا هو الكتاب الذي خلق العرب خلقاً جديداً، ثم وحّد صفوفهم ودفعهم الي العالم فاقتحموه وحكموه ... » [3] .

درمنغم : « سيكون القرآن نشيد حرب محرّضاً المؤمنين على القتال ، جامعاً لشؤونه ، محركاً لقاتري الهم ، فاضحاً للمخلفّين ، مخزيا للمنافقين ، واعداً الشهداء ... » [4] .

دينية : « في هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي احرزه الاسلام ، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الاوربيون لأنهم يجهلون القرآن ... » [5] .

فاغليري : « إن انتشار الاسلام السريع لم يتمّ ، لا عن طريق القوّة ولا بجهود المبشرّين الموصولة . ان الذي ادى الى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدّمه المسلمون للشعوب المغلوبة ، مع تخييرها بين قبوله ورفضه ، كتابُ الله ، كلمة الحق ، اعظم معجزة كان في ميسر محمد { صلى الله عليه وسلم } أن يقدمها الى المتردّدين في هذه الأرض »[6] .

---

(١) في خطى محمد ص ٣٥٨ .

(٢) البحث عن الله ص ٥١ .

(٣) نفسه ص ١١٣ .

(٤) حياة محمد ص ١٩٥ .

(٥) محمد رسول الله ص ١١٨ .

(٦) دفاع عن الاسلام ص ٥٩ .

إنهم يتحدثون عن تأثيرات عميقة في دوائر معرفية عديدة ، بعضها يتعلّق بعلوم محدّدة ، وبخاصة اللغة والأدب والتاريخ ، وبعضها الآخر ينداح لكي يغطّي النشاط الثقافي ، ويطبع الحركة الحضارية ، عامة ، بميسمه المتميزّ .

في دائرة اللغة والأدب مثلاً ، قال بلاشير الكثير ، عبر كتابيه المعروفين (تاريخ الأدب العربي) ، (القرآن) واذا كنا قد تعاملنا معهما في غير هذا المكان [1] ، فلا مبرّر للتكرار ، وسنجدنا مضطرين لأن نمضي الى غيره من المفكرين والأدباء والباحثين .

فصنوه الفرنسي اتيين دينيه يشير الي ما حققه القرآن الكريم على مستوى اللغة ، واعتبره « معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض ، بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المعلّمين من أهل اللغة العربية ، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد . وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من اهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب الينا من عصر القرآن ، من الصعوبة في مخاطبة العديد الاكبر من فرنسيّي اليوم » [2] .

وسارتون الامريكي يلحظ الدور نفسه ، ذلك « أن لغة القرآن ، على اعتبار أنها لغة الله كانت ، بهذا التحديد ، كاملة ... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية الى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد » . ويزيد سارتون علي ما قاله دينيه ، من أن كتاب الله قدر على أن يجعل من اللغة العربية

---

(١) انظر كتاب (الاسلام والوجه الآخر للفكر الغربي) (قيد النشر) .

(٢) أشعة خاصة بنور الاسلام ص ٣٥ (ترجمة راشد رستم ، سلسلة الثقافة الاسلامية رقم ١٧ ، المكتب الفني للنشر ، بيروت - ١٩٦٠) .

«وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة » [1] .

أما سيديو فيؤكد كيف كان القرآن أساساً لعلوم اللغة والأدب العربي في سائر تخصصاتهما ... لقد « صلح القرآن ليكون نموذجاً للأسلوب وقواعد النحو .. فأوجب ذلك نشوء علم اللغة . فظهور علم البيان الذي درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة ، وأضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره اكثر من مئة فرع ، فأدّى هذا الى ملا حصر له من التأليف في كل منها ، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة عن الفساد بمخالطة اللغات الأخرى » [2] . وهو يشير - كذلك - الى ما أشار اليه دينيه وسارتون من جعل القرآن اللغة العربية لغة عالمية « تتكلم بها مختلف الشعوب الاسلامية في آسيا حتى الهند ، وفي افريقيا حتى السودان » [3].

والكتّاب العرب من غير المسلمين ، وهم ادرى بما فعله القرآن في اللغة والأدب ، لا يبخلون في القول .

فيليب حتي مثلاً يرى « أن اعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي . أما اذا نحن نظرنا الى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والانجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الانكليزية ضئيل ، بالاضافة الى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية . ان القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من ان تتمزق لهجات »[4].

صنوه اللبناني الدكتور جورج حنّا يؤكد « أنه لا بدّ من الاقرار بأن القرآن فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع ، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحى ، للقرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة ، ولطالما يعود اليه أئمة اللغة في بلاغة الكلمة وبيانها ، سواء كان هؤلاء الائمة مسلمين أم مسيحيين . واذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن منزلاً

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) تاريخ العرب العام ص ٤٥٨ .

(٣) نفسه .

(٤) الاسلام منهج حياة ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

ولا تحتمل التخطئة ، فالمسيحيون يعترفون أيضاً بهذه الصوابية ، بقطع النظر عن كونه منزّلاً ... ويرجعون اليه للاستشهاد بلغته الصحيحة ، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة » [1] .

أما سلهب فانه يتوقف عند التأثر القرآني في الشعر « فاذا كنا بالأمس واليوم ، نطرب لرائع الشعر العربي ... سواء في بيروت أو دمشق أو القاهرة أو بغداد أو تونس ، أو في اي صقع من اصقاع العروبة ، فانما الفضل في ذلك يعود للقرآن ، والقرآن وحده ... » [2] وإذا « استعرضنا بالمخيّلة ما جادت به قرائح شعراء { العربية } ... من روائع الشعر ، ثم أخذنا بعين الاعتبار أن جميع الروائع ما كانت لتكون لولا القرآن ، لأدركنا العطاء الجلل الذي أسداه هذا الكتاب الى التراث الشعري ، بل الى صرح الجمال في العالم » [3] .

وعن دور القرآن في نشأة علم التاريخ عند المسلمين يقول المستشرق فرانز روزنثال أن « من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفرّ المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريّه الي البحث عن المعلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه .

وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية ، على مرّ الزمن ، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن . واذا كان الرسول (صلي الله عليه وسلم) قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية ، فان هذا لايبرّر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية . لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة . وقد ذكر الرسول (صلي الله عليه وسلم) ان اليهود والنصارى حرّفوا التوراة وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن ... لقد أشار القرآن الي كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين ... وكان لذلك أهمية في التاريخ الاسلامي لأن الأحداث التي أشارت اليها الأيات صارت لها أهمية تاريخية

---

(١) قصة الانسان ص ٧٩ - ٨٠ (الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت - ٩٧٣) .

(٢) في خطى محمد ص ٣٤٤ .

(٣) نفسه ص ٣٤٥ .

كبرى للمسلمين ، واستثارت البحوث التاريخية » [1] .

أما كَب فانه يعتبر القرآن « مصدراً استمد منه علم الأخلاق الاسلامي وعلم الكلام الاسلامي »[2]. وهو يوسّع نطاق التأثير الثقافي فيلحظ كيف أن القرآن « زوّد ضروب النشاط العلمي للحياة الاسلامية بمسارت جديدة »[3] لكي تكون قديرة على التعبير على الرؤية الايمانية الجديدة ، مستجيبة لمطالبها وطموحاتها . هذه العبارة التي تذكرنا بما قاله المؤرخ الفرنسي ريسلر بهذا الصدد ، وهو أن القرآن « يظل طيلة القرون الاولى للهجرة ، من جهة المبدأ ، مصدر الالهام لكل العقلية الاسلامية ، فهو يضّم بين اطرافه الافكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر»[4]. كما تذكرنا باستنتاج آخر لريسلر ، في السياق نفسه وهو « أن القرآن ، فوق أنه كتاب ديني » فانه يتضمّن « خلاصة جميع المعارف » وأنه « ظل زمنا طويلا اول كتاب يتخذ للقراءة الى الوقت الذي شكّل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية . ولا يزال حتى اليوم النصّ الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الاسلامية » [5] .

وهذه المعطيات التي توسّع نطاق الحديث عن التأثير القرآني الى الدائرة الثقافية على امتدادها ، تنقلنا بالضرورة الى المحطة الأخيرة في بحثنا الموجز هذا : ما فعله كتاب الله في تكوين حضارة الاسلام الجديدة ، وصياغتها . فهنا أيضاً يبدو الدور الكبير واضحاً مؤكدا ، كما هو واضح مؤكد في سائر المناحي الأخرى . ويكفي أن نشير فقط الى ما تقوله الباحثة الانكليزية ايڤلين كوبولد من « أن أثر القرآن في التقدم الحضاري الاسلامي لا ينكر » ، وأنه هو

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين ص ٤١ - ٤٢ (ترجمة صالح أحمد العلي ، مراجعة محمد توفيق حسين ، مكتبة المثنى بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين ، بغداد - ١٩٦٣) .

(٢) دراسات في حضارة الاسلام ص ٢٦٠ .

(٣) نفسه ص ٢٩٠ .

(٤) الحضارة العربية ص ٢١٢ .

(٥) نفسه ص ٤٥ .

الذي « مكن العرب من انشاء امبراطورية » فاقت سائر الامبراطوريات التي سبقتها أو عاصرتها « عمرانا وحضارة »[1] ، كما أنه هو الذي دفعهم « الى نشر حضارتهم وثقافاتهم وفلسفتهم ، بينما كانت اوربا المسيحية تتخبط في جهل قادح واختلاف داهم » [2].

وما يقوله المؤلف الامريكي المعروف ول ديورانت من أن القرآن الكريم «ظل أربعة عشر قرنا من الزمان يشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال ... ويرفع مستواهم الثقافي ... ويحرّر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام » [3] .

ويكفي أن نشير الى عبارات هؤلاء الكتاب والباحثين لكي نقول مطمئنين مع المفكر الفرنسي فنساي مونتاي الذي انتهى به الأمر الى اعتناق الاسلام عالم ١٩٧٧ م من « أن مثل الفكر العربي الاسلامي المبعد عن التأثير القرآني كمثل رجل أفرغ من دمه ! » [4].



(١) البحث عن الله ص ٤٥ ، ١١٣ .

(٢) نفسه .

(٣) قصة الحضارة ١٣ / ٦٨ - ٦٩ .

(٤) رجال ونساء اسلموا ٥ / ٥٠ - ٥١ .

خاتمه

ذلك بعض ما قيل في كتاب الله المعجز وكلماته التامات ... وهو غيض من فيض ، لكنه ، على أية حال ، يكاد يلخّص المؤشرات الأسلامية لمعطيات غير المسلمين (الايجابية) في هذا المجال .

ويكفي أن نجد عدداً غير قليل من هؤلاء الذين تحدثوا عن القرآن يندفعون في نهاية الأمر ، وربما في بدئه ، للانتماء الى دين هذا كتابه !

من ثم فان لنا أن نتلمّس مدى الصدق والاخلاص للحق والعلم معاً ، ذلك الذي دفع هؤلاء جميعا ، وبموازاة اساءات العديد منهم ، متعمّدين وغير متعمدّين ، لأن يقولوا كلماتهم ويصوغوا استنتاجاتهم « الايجابية » عن كتاب الله . وصدق الله العظيم القائل في محكم الكتاب (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبيّن لهم انه الحق ، أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟) * .



* سورة فصّلت ، الآية ٥٣ .

المحتوى



كتب للمؤلف

أ بحوث تاريخية

١ - ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (الطبعة السابعة) مؤسسة الرسالة - بيروت

٢ - عماد الدين زكي (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة

٣ - دراسة في السيرة (الطبعة الثانية عشر) مؤسسة الرسالة - دار النفائس

٤ - الحصار القاسي : ملامح مأساتنا في افريقيا (الطبعة الثالثة) مؤسسة الرسالة

٥ - التفسير الاسلامي للتاريخ (الطبعة السادسة) دار العلم للملايين - بيروت

٦ - نور الدين محمود : الرجل والتجربة (الطبعة الثانية) دار القلم - دمشق

٧ - الامارات الاسلامية في الجزيرة : اضواء جديدة على المقاومة الاسلامية للصليبيين والتتر (الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة

٨ - في التاريخ الاسلامي : فصول في المنهج والتحليل (الطبعة الاولى) المكتب الاسلامي - بيروت

٩ - المقاومة الاسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاة السلاجقة في الموصل (الطبعة الاولى) مكتبة المعارف - الرياض

١٠ - أبن خلدون اسلامياً (الطبعة الثانية) المكتب الاسلامي

١١ - دراسات تاريخية (الطبعة الاولى) المكتب الاسلامي

١٢ - حول اعادة كتابة التاريخ الاسلامي (الطبعة الاولى) دار الثقافة - الدوحة

١٣ - المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر :مونتغمري وات (الطبعة الاولى) دار الثقافة

١٤ - تحليل للتاريخ الاسلامي : اطار عام (الطبعة الاولى) دار الثقافة

١٥ - المنظور التاريخي في فكر سيّد قطب (قيد النشر)

١٦ - حاضر الاسلام ومستقبله من منظور غربي (قيد النشر)

ب بحوث اسلامية

١ - لعبة اليمين واليسار	(الطبعة الخامسة)مؤسسة الرسالة
٢ - تهافت العلمانية	(الطبعة السادسة)مؤسسة الرسالة
٣ - مقال في العدل الاجتماعي	(الطبعة الثالثة) مؤسسة الرسالة
٤ - مع القرآن في عالمه الرحيب	(الطبعة الثالثة) مؤسسة الرسالة
٥ - آفاق قرآنية	(الطبعة الثالثة) دار العلم للملايين
٦ - كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك)	(الطبعة الثانية) دار العلوم - الرياض
٧ - كتابات اسلامية	(الطبعة الاولى) الكتب الاسلامي - مكتبة الحرمين
٨ - اضوا جديدة على لعبة اليمين واليسار	(الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة
٩ - مدخل الى موقف القرآن من العلم الحديث	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
١٠ - العلم في مواجهة المادة : قراءة في كتاب (حدود العلم)	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
١١ - مؤشرات اسلامية في زمن السرعة	(الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة
١٢ - حول اعادة تشكيل العقل المسلم	(الطبعة الرابعة) مجلة الامة - الدوحة
١٣ - في الرؤية الاسلامية	(الطبعة الاولى) دار الثقافة
١٤ - حوار في المعمار الكوني	(الطبعة الاولى) دار الثقافة
١٥ - الاسلام والوجه الاخر للفكر الغربي : قراءات	(قيد النشر)
١٦ - في اسلامية المعرفة : بحوث ومقترحات	(الطبعة الثانية) المعهد العالمي للفكر الاسلامي
١٧ - قالوا في الاسلام	(الطبعة الاولى) الندوة العامية للشباب الاسلامي

جـ أعمال ادبية

١ - المأسورون (مسرحية ذات اربعة فصول)	(الطبعة الثانية)مؤسسة الرسالة
٢ - في النقد الاسلامي المعاصر (نقد)	(الطبعة الثالثة)مؤسسة الرسالة
٣ - فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة)	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
٤ - الطبيعة في الفن الغربي والاسلامي (دراسة)	(الطبعة الثانية)مؤسسة الرسالة
٥ - جداول الحب واليقين (شعر)	(الطبعة الثالثة)مؤسسة الرسالة
٦ - معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
٧ - خمس مسرحيات اسلامية (ذات فصل واحد)	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
٨ - محاولات جديدة في النقد الاسامي (نقد)	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
٩ - الشمس والدنس (مسرحية ذات اربعة فصول)	(الطبعة الاولى) دار الاعتصام - القاهرة
١٠ - مدخل الى نظرية الادب الاسلامي (دراسة)	(الطبعة الثانية)مؤسسة الرسالة
١١ - الاعصار والمئذنه (رواية)	(الطبعة الاولى)مؤسسة الرسالة
١٢ - المغول (مسرحية ذات اربعة مشاهد)	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
١٣ - العبور (مسرحية ذات فصل واحد)	(الطبعة الاولى) دار المنارة - جدّة
١٤ - متابعات في دائرة الادب الاسلامي (نقد)	(قيد النشر)
١٥ - الفن والعقيدة (دراسة)	(الطبعة الاولى) مؤسسة الرسالة
١٦ - الادب فيّ مواجهة المادية (دراسة)	(قيد النشر)
١٧ - ابتهالات في زمن الغربة (شعر)	(قيد النشر)